
الشعلة
أحمد زكي أبو شادي

الشعلة

الشعلة

تأليف
أحمد زكي أبو شادي



الشعلة

أحمد زكي أبو شادي

رقم إيداع ١٩٤٢٧ / ٢٠١٣
تدمك: ٧ ٤٦١ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إسلام الشيمي.

المحتويات

إهداء الديوان

اثنانِ هذا الشعر تَحْفِل روحُه بهما: حَنانُكِ أنتِ ثم حَناني

رَدَّدْتُهُ نَغَمَ الحياةِ، فإن نأتْ بنواكِ عاد نشيدُه فرثاني

فإذا ابتسمتِ فكلُّ شعريَ خالدٌ وإذا عبستِ فكلُّ شعريَ فان

أبو شادي

تصدير

أكثرُ هذا الشعر قديمٌ وأكثره لم يسبق نشره. جرى به اللسانُ طوعًا لمناجاة النفس في ظروفٍ متعددة يشملها الاضطرابُ والثورةُ الفكريةُ والسياسيةُ، فما يدعو إلى نشره الآن سوى حبُّ المشاركة الروحية لمن شاء من الأدباء أن يجلس إلى هذه المائدة المعنوية التي تجمع ألوانها بين الغذاء الدَّسِم والفاكهة، وبين الحلوى والدواء المرِّ، مقرونة بأخلص صلواتي الروحية. وشجَّعني على ذلك أن مختارات من هذه القصائد — وأخصُّ بالذكر الوطنية والاجتماعية منها — منسوخةٌ ومتداوَلةٌ بين الأدباء لما فيها من صدى نفوسهم الحزينة وشعلة آمالهم ومرارة قنوطهم في هذا العهد الصاخب بالتيارات المتناقضة.

وقد حرصتُ على استبقاء نصوصها الأصلية إرضاءً للناقد الأدبي الذي يسرُّه متابعة التطوُّر في ذهنية الشاعر وعواطفه وأسلوبه وتفاعله الأدبي والفكري مع بيئته، وإرضاءً لذكرياتي ووجداني وشعوري حينئذٍ. وهي أول ما يعنيني إن لم تكن في الواقع كل ما يعنيني إرضاؤه.

وقد أسميتُ هذا الديوان «الشعلة» إذْ وجدتُ شِعْرَهُ أبعدَ ما نظمتُه نفوذًا وهدايةً وتأثيرًا بين شعري الوطني والاجتماعي، وقد جاء في دور انتقالٍ والنفوسُ جامحةٌ والخواطر مضطربةٌ والحريات معطَّلةٌ. ولم تسمح الظروفُ بطبعه من قبلُ لاعتبارات سياسية، ولكنَّ ذيوع جانب من شعره بين الجمهور المثقَّف كان برغم ذلك عظيمًا إلى حدٍّ أن نُسِبَتْ غير واحدة من هذه القصائد إلى بعض الشيوخ من شعرائنا المعروفين وأخصُّ بالذكر قصيدتي «الناسخ والمنسوخ» و«اليد النكراء».

وقد نشأت هذه الحركةُ في البيئات المدرسية أولًا حيث كان لمطابع الفالوذج دورٌ مستورٌ في نشر الشعر الوطني والسياسيِّ، وكاد يصبح نصيبي من هذا اللون من الشعر

مجهولَ النَّسب كما أُصيبتْ قصائد شتَّى من قبلُ لشعراء آخرين. ورأيتُ أَنَّ الوقت قد حان الآن لطبع هذا الديوان كحلقةٍ في تاريخ الشعر المصري إبَّان الحركة الوطنية الحديثة، وإنْ كانت قد سبقتْها حلقاتٌ من لون هذا الشعر في دواويني المتقدمة وفي دواوين غيري من الشعراء، هذا إلى أن الديوان يشمل كذلك غير قليل من الشعر الوجداني والشعر الوصفي الخالص.

ومهما يكن من نزوعي إلى الشعر الفني الصافي وإلى الروح الإنسانية العامة فلا بدَّ لي من الاعتراف بأَنَّ نفسَ الشاعر نُهزةُ المؤثرات الوطنية متى ما ارتبطتْ بالمبادئ الأدبية السامية؛ ومِنْ ثمَّة نشأ الشعرُ الوطنيُّ الحيُّ. وليس لي بطبيعة الحال أن أُزكي هذا الشعر وإنما عليَّ واجب تدوينه ونشره تاركًا للأدباء أن يتذوَّقوه ويستوعبوه أو يُغفلوه ويهملوه حسب أذواقهم ونزعاتهم الأدبية، والخيرُ كل الخير في اختلاف هذه الأذواق.

وإذا كنتُ أعْنى بنشر هذا الشعر الذي هو من فلذات قلبي وعرائس خواطري فليس للتكسُّب ولا للشهرة، ولا لأيِّ اعتبار دنيوي، ولا للذة معنوية مألوفة، فإنَّ الحافز الوحيد لي هو إحساسي أنَّ هذه الكلمات تحمل أجزاءَ رُوحي وتؤلِّف صحائف نفسي وتنطوي على صورة من المثل الأعلى الذي أعشقه أو على أقرب خيال له؛ لذلك أعرضها بروح صوفيةٍ على مَنْ تجاوبَت بيني وبينهم أصداءُ نفوسنا فاندمجت عواطفنا المشتركة في وحدة صافية. فهذه المتعة الصوفية — متعة التجاوب النفساني والاندماج الروحي — هي التي تحفزني إلى نشر هذا الشعر كيفما كانت قيمته الفنيَّة.

وقد ذكر بعضُ حضرات النقَّاد أن كلَّ ما يتمنونه عليَّ هو الاستجمام وتجنُّب الإسراع في قرض الشعر. واستشهدوا بشعر لي تفضلوا فعدُّوه من أروع الشعر العصريِّ فلما نظرتُ فيه لم أجده غير شعر أمليتُه ارتجالًا. فلم أرَ بُدًّا من ذِكر كلمة للحقيقة التاريخية التي يندر أن تُنصفَ في النقد الأدبي، ولم أرَ مناصًا من أن أصرِّح بأني لم أتنبَّه كثيرًا إلى أمر هذه السرعة النظمية ولا أعتد بها، وكل ما أعرفه أن العاطفة تجيش في نفسي أو التفاعل الفني لأثر أو كائنٍ يغالبني فلا ألبث بعد زمنٍ طويلٍ أو قصير أن أردِّد صَدَى وقعه في قلبي بنغمةٍ من النغمات إما ارتجالًا أو رويًّا، بسرعة أو ببطء، حسب فيضه وقوة ذلك الفيض، وربما كان الوقتُ الفاصلُ بين عامل التأثير وقرض الشعر من أثر ذلك الإيحاء مديدًا، وربما كان وجيزًا، وكذلك وقت النظم ذاته. وعندي أنه لا يعني الفنَّ شيءٌ من ذلك وإنما يعنيه قيمةُ الأثر الفني وحده الذي يُخرجه الفنَّان. وإذا كنتُ سريعَ النظم اعتيادًا فالحقيقةُ أنَّ الزمن الذي أصبُّ فيه هذا الشعر قد يتفق أو لا

يتفق والزمن الذي يُخْلق فيه هذا الشعر بنفسي، وليس لي حولٌ في صدِّه بأية صورة من الصوَر، فما تزال العاطفة تلجُّ بنفسي ثم تلجُّ حتى أعبِّر عنها وإلَّا استولى عليَّ الضيقُ والكمدُ. فهذه هي أنفاسٌ وفلذاتٌ من صميم وجداني لا يجوز أن أسألَ عن صورة خلقها ولا عن ظروفه، وإنما أقدمها في هيكل الفن قرابين وصلوات.

أحمد زكي أبو شادي

ضاحية المطرية ديسمبر ١٩٣٢

إلمامة

فلسفة الشعر

من السهل كتابة مجلد حاشد بعشرات المسائل التي تشملها فلسفة الشعر؛[1] فإن الإسهاب في هذه الأبحاث أهون من الاقتضاب، وليس من الميسور أن يتناول المتأمِّل المدقق في فراغ ضيق محدود إلا نقطًا يسيرة معدودة، وهذا ما أحاوله في هذه الكلمة الوجيزة.

الشعر في حقيقته لغة الشعور وتصويره، ولكنه ليس بلغة الشعور السطحي أي إنه يعبر عمَّا وراء المظاهر الواقعية. وهو في جماله المستحب إنما يعبر بلغة الإنسانية في طفولتها، وبلغة الوجدان التي لا يسيطر عليها العقل. بيد أن العقل الإنساني في تطوُّر عظيم وفي نضوج مستمر على حساب سواه من المواهب العصبية، ولذلك يواجه الشعر بتعاقب الأجيال خطر المنطق وسيطرته، ومحاولة الحقيقة العلمية أن تسود الحقيقة الشعرية.

ولغة الإنسانية في طفولتها متصلة بالأساطير والخرافات وبالتعاليل الساذجة وبالروعة من مظاهر الطبيعة وتفاعيلها، وهذه تُكسب الشعر مسحة جميلة لأن كل هذه الأشياء متصلة بالشعور والعقيدة الدينية التي هي بمثابة عواطف مركزة، ونحن نقول الشعر بعواطفنا ويتصل فهمنا به عن سبيل العواطف، ولذلك نميل إلى نعت هذا النوع من الشعر «بالشعر الصافي».

[1] عن المجلد الرابع من مجلة «المصور».

ولغة الإنسانية في رجولتها النامية في هذا الزمن وفيما بعده هي لغة المنطق والذكاء والفلسفة العلمية والحكمة وما إليها؛ ولذلك لا نميل إلى اعتبار الشعر الذي تقدمه هذه اللغة إلينا شعرًا صافيًا ونراه بعيدًا عن العواطف والوجدان.

على أن هناك محاولات جديدة في العهود الأخيرة ترمي إلى الجمع بين الصورتين بحيث تستوعب نفحاتُ العاطفة ثمار العقل عند التعبير الشعري. ومعنى هذا أن تتحول الفلسفة والحكمة والعلم إلى إيمان صادق في نفس الشاعر فتتمثل في شعوره ونظمه. وهذا لن يكون بطبيعة الحال تعمُّدًا عن طريق الصناعة، وإنما يكون حيث يوجد الشاعر الذي له بطبيعته وتربيته هذه النزعة فتصير عواطفه وإيمانه وعلمه وفلسفته وحدة تكاد لا تقبل التجزئة.

فأمَّا مثال «الشعر الصافي» فتجده عند أبي نواس وابن خفاجة وشلي وكيتس ووردزورث مثلًا، وأما «الشعر العلمي المنطقي» فأظهر أمثلتِه بيننا شعر الأستاذ الزهاوي. وأما شعر «العاطفة الفلسفية» التي تقدِّم لك إحساسًا صادقًا تمتزج فيه نوافِحُ الوجدان بأحكام العقل امتزاجًا شائقًا مقبولًا؛ ففي أمثلة مختارة من شعر أبي العلاء المعري وشعر المتنبي، ولعل أخلد الأمثلة لذلك داليَّة أبي العلاء المشهورة.

وفي رأيي أن هذا النوع الأخير من الشعر لا يقل سُمُوًّا عن «الشعر الساذج الصافي»، وربما جاز لنا أن نعده أسمى أنواع الشعر؛ بل شعر المستقبل. ولما كان الشعر «كالأدب عامة» نقدًا للحياة لم يكن من الغرابة ولا من المجازفة أن نقدم هذا الرأي حينما نلحظ متجه التطور للعقل الإنساني.

وبين أعلام أدبائنا من لا يرضيه ظهور هذه النزعة في الشعر الإنجليزي وفي الشعر العربي الجديد ويؤثِر الشعر الفرنسي عليهما، وبينهم من يرى أن الشعر ينبغي أن يكون قصرًا على الظُّرف واللهو والمداعبة والاستهتار أحيانًا. ولكننا لا نعرف أن الحياة هي هذا وحده، ولا نرى الشعر الذي يقتصر على هذه النماذج شعرًا جامعًا سواء في روحه أو مشتملاته، ولا يكفيني أن يكون الشاعر مصوِّرًا، ولا يرضيني أن يكون حاكيًا وإنما يعنيني أن يكون أيضًا خالقًا لمثل أعلى، وهذا ما ينقله توًّا إلى دائرة الفيلسوف. على أني — مع اعترافي بذلك — أكرر أن الشاعر الفلسفي النزعة الذي لا تخاصم عواطفه عقله، والذي يرضى عقله أن يعهد إلى العواطف في أن تعبر عنه بلغتها، هو أسمى الشعراء على الإطلاق.

وإذا آمنتَ معي بهذه النظرية لم تجد مانعًا لأن تهضم الحقيقة الشعرية أية حقيقة علمية. وهذا الأستاذ ترفليان صاحب كتاب «تاميرس Thamyris» لا يرى ما يمنع هضم

الزراعة والهندسة والطب ونحوها في الشعر، فالعبرة في كل ذلك بتأثر عواطف الشاعر بكل هذا ثم بطريقة أدائه، وهل هو يجعل من العلم شعرًا، أم يجعل من الشعر علمًا. وهذا شوقي بك نظم كما نظمتُ في تربية النحل فكانت قصيدته المشهورة في هذا الموضوع من أجمل وأنفس شعره.

وكما أن خصب التربة شرط أساسي في مقدمة العوامل لحسن إنتاجها، أو كما أن لكل تربة ما هو أصلح لها من غرس، فكذلك لا يُنتظر أن يثمر أي نوع من الشعر بدرجة واحدة في كل ذهن، بل لا عجب إذا رفضته بعض الأذهان. وقبول الشعر هو أثر لنوع من الإيحاء، وليست كل النفوس سواء في التأثر بإيحاء بعينه؛ ومن ثَمَّ كان من العدل أن لا تلقي العيب على الشعر وحده إذا لم يكن له أثر محسوس في بيئة معينة ليس لها الاستعداد الكافي للتأثُّر به وإن كانت لها القابلية للتأثر بسواه، فهذه كلها أمور نسبية ليس من الحكمة والصواب أن تكون موضع الجزم والحتم.

ومما يُشرِّف الشعر أن يمثل بيئته أصدق تمثيل ولا يكون في مجموعه غريبًا عنها، ولكن مما يزيده شرفًا أن يمثل في نواحٍ منه الحقيقة الإنسانية الشاملة وأن لا يكون مجرد مرآة بل روحًا خالقة حافزة إلى جانب ذلك.

وقد أشرتُ غير مرة إلى «الحقيقة الشعرية» كشيء يختلف عن «الحقيقة العلمية» وأراني مطالَبًا بشيء من التفسير، فأقول إن «الحقيقة العلمية» تحتِّم التعريف الصادق منطقيًّا وواقعيًّا، بينما «الحقيقة الشعرية» لا تحتم إلا صدق الخيال والإحساس. ومن الجائز أن يقول شاعر مريض أو سليم شعرًا لا يمكن أن يوافق أبسط مبادئ العلم أو المنطق أو يكون كله شذوذًا عجيبًا، ومع ذلك نعدُّ هذا النظم ذا «حقيقة شعرية» لأنَّه يعبر في صدق وإخلاص تام عن نفسية ذلك الشاعر في ظروف خاصة، ويمثل حقًّا وحدة العواطف والإيمان الذي في لُبِّهِ. ومن أجل ذلك أميل إلى الاستعانة بعلم النفس في نقد الشعر فهو أولى من سواه من العلوم الشكلية في تحليل وتقدير لغة النفس وصُوَرِها.

ويميل بعض النقاد إلى النظر في مسألة الإنتاج الشعري نظرة فلسفية، ولا بأس بذلك. ومعظمهم يرى أن الإقلال أنسب للإتقان الفني في الشعر. أما أنا فرأيي الخاص هو أن الشاعر المطبوع مُكثِر بفطرته وليس مقلًّا، فإذا لم يظهر له شعر كثير فليس هذا مما يناقض نظريتي، بل يكون معناه أن شعره محوَّلٌ إلى منافذ أخرى في حياته، فقد يكون لهوًا أو رياضة ذهنية أو رقصًا أو عزفًا أو غير ذلك، وهكذا تتخذ قوته الشعرية مظاهر مختلفة وربما لم يكن سبب لذلك سوى تهيُّبه النظم وانصرافه عنه لعوامل اجتماعية

أو شخصية. ومن شيوخ شعرائنا المطبوعين الذين نبذوا الأحجام شوقي ومطران، وهما من أكثر الشعراء إنتاجًا، وكأنما المرانة قد ساعدت على إنضاج مركز الطبع الشعري في ذهنيهما، فأصبحا تحت تأثير فسيولوجي لا يهدأ وهو ذو مستوى خاص في كل منهما لا يُضعفه غير الكلال، فلا يفسد قيمة إنتاجهما الإكثار ما دام ذلك طبيعيًّا، وعندي أن الإقلال المصطنع لا يقل سوءًا وقبحًا عن الإكثار المصطنع، وإنما الجمال يكون في إطلاق النفس الشاعرة على سجيتها.

وما دمنا قد أشرنا إلى الإيحاء وتأثيره فلا بد من كلمة عن لغة الشعر. وخيرها عندي ما ناسب المقام لفظًا وجرسًا بحيث يكون اللفظ والمعنى وحدة متماسكة في تأدية الإحساس الشعري ونقله إليك، ولذلك أوثر في كل بيئة الموسيقية الشعرية التي توافق روحها. ويعلم القراء أني لست من أنصار اللهجة العامية، ولكني أرتاح إلى تمصير العربية أو تعريب المصرية بحيث يظهر في أدبنا المصري روح هذا الوطن الرقيق الوديع الذي يمثله شعر البهاء زهير أصدقَ تمثيل، وقد يمثله شعر ابن قلاقس وابن النبيه وابن نباتة أحيانًا. وأما الرجوع بنا إلى لهجة العصر الأموي والعصر العباسي فليس من التجديد ولا من إنصاف بيئتنا في شيء. وأرى بيئتنا المصرية الحاضرة متفرنجة فلا يمكن تجريد شعرنا العصري من روح التفرنُج، ولن يخاف ذلك إلا كل متصنع يحتمي — خداعًا أو جهلًا منه بفلسفة الشعر — وراء الغيرة على اللغة، حينما هو يسيء بذلك إلى لغته وشعره.

شعر الديوان

الشعلة

أيُشْعِلُ نيرانَ التَّطاحُنِ غاشمُ
ويَغفل عن نشرِ الحقيقة عالمُ؟
هلمَّ يراعي! ولتكنْ أنتَ شعلة
تُضيء سبيلَ الرُّشدِ فالرشدُ ناقمُ
لقد كثر العُمْيُ الذين تهافتوا
على أن يشقُّوا النَّهجَ والنَّهجُ قاتم
ولو أنهم أُعطوا الضياءَ تعثروا
فما تنفع الأضواءُ واللحظُ نائمُ
وما حظُّهم من ثروة حين حالُهم
كحالِ فقيرٍ في يديْه الدراهمُ؟
وكم من أجيرٍ سكَّ مالًا مجدَّدًا
فلا هو ذو بأسٍ ولا هو غانمُ
تقدَّمْ يراعي! وانظرِ الحقَّ ناصعًا
فلم أر مثل الحقِّ يؤذي المخاصمُ
تنادوْا به والكلُّ يهتفُ باسمِهِ
وكلٌّ خُصومٌ حوله ومَغارمُ!

لقد صغروا حتى كأنْ لم تكنْ لهم
عقولٌ وكادتْ تشمئزُّ الجماجمُ!
وقد جهلوا فهمَ الحياةِ فلم تعدْ
تبين لُغى الأحداثِ[1] وهي التراجمُ
وصاحوا وصاحوا، والصَّدَى يُضحك الصَّدَى
وما هكذا تُشجَى الليوثُ الضراغمُ
ولو أنَّهم هبُّوا إلى الخير مرةً
مع الحِلْمِ لم تعبث بمصر المظالمُ
فهل فُقِدتْ من مصر كلُّ زعامةٍ
وهل تَخلق القوادَ فينا المزاعمُ؟!
وما عُرِفَ الأبطالُ يومًا بصيحةٍ
ولكنْ هوَى الأبطالِ تلكَ العظائمُ
فيا وطَني لم يَبْقَ إلَّا التفافنا
على العَلَمِ المفديِّ والدهرُ راغمُ
لقد نال منَّا في قرونٍ طويلةٍ
فأَحْرِ بنا أن لا يُخادَعَ حالمُ
وأحْرِ بِنا أنْ يُنْهِكَ الأرضَ زحفُنا
وأن يُعْلِنَ الإقدامَ منا الزَّمازمُ[2]
فأمَّا وماضِي المجدِ أصبح صورةً
وماتت كما مُتنا السيوفُ الصوارمُ
فهل يخذل القوادُ حتى بحبهمْ
ذويهم؟ وهل دونَ التآخي الدعائمُ؟
لَخيرٌ لنا أن نغتدي دون قائدٍ
من الحربِ كلٌّ في ردَاها يُساهمُ

---

[1] الحادثات.

[2] الزمازم: أصوات الرعد.

وما أنا مَنْ يَنْسى لهم فضلَ ما مَضى
ولا أنـا مَـنْ يَـنْـسـى الـذي هـو قـادمُ
ولـكـنَّـمـا هـذا الـتـطـاحـنُ هـوَّةٌ
تـردَّوْا بـهـا فـالـغـانـمُ الـيـومَ غـارمُ

الشعاع الضائع

أبليتُ أنفسَ أعوامي على حَرَق
فما حياتي بقلبٍ جدِّ محترقِ؟
ما كان يومًا لِيرعاني ويرحمني
فعشتُ مثلَ أسير اليمِّ في قلق
مُكافِحًا، وهو في أمنٍ يُخالُ به
وكلُّ يومٍ له لونٌ من الغرقِ!
ماذا استفدتُ وما جَدْوَاهُ مِنْ شجني
ومن عناءٍ بلا حَدٍّ ولا رَمَقِ؟
قد كادُ يطفأ إشعاعي ولا عجبٌ
بعضُ الرشاد شبيهُ الطيشِ والنَّزقِ
الناسُ تبخل في مالٍ وفي نشبٍ
وما بَخَلْتُ بروحي قبل مُرْتزَقِي
والشمسُ تَفْنى ضياءً وهي محسنةٌ
ولا ثناءَ لها حتى من الشَّفقِ[3]
تمضي المآثرُ بين الناسِ ضائعةً
كما يغيب شعاعُ الشمس في الغسقِ[4]

الجوهر

تهليلة للفن

عِشْ بقلبي يا إلهَ الشعراءِ
ما اكتفى شِعري ولم يسأمْ دُعائي
تـتـراءَى لـوفـيٍّ شـاعـرٍ
نافذِ الحِسِّ عزيزٍ لا يُرائي
أنـا أهـواكَ خُـلـودًا دائـمًـا
في كياني، لا خُلودًا في المرائي

---

[3] باعتباره آخر مستمتع بضيائها فلا أمد يجيز نسيانه إياها.

[4] الغسق: ظلمة أول الليل.

كي أعيشَ العُمْرَ فنًّا خالصًا   إنما الفنُّ حَياةُ الأنبياءِ

* * *

لم أكنْ لولاكَ أرْضَى منزلي   هذه الأرضَ ولا أرضَى سمائي
بِكَ أسْتجلي وُجودًا آخرًا   وخَلاصًا مِنْ عذابٍ وشقاءِ
وأصوغُ الآيَ تلْوَ الآي مِنْ   حكمةٍ بَزَّتْ جلالَ الحكماءِ
لحظتْ نفسي خفاياها، وإنْ   كانت النفسُ كتيهِ الصَّحراءِ
واستقلَّتْ عن قيودٍ جمةٍ   من حياةِ الأرض سَبْحًا في الفضاءِ
في حياةٍ لم يَعُدْ مِنْ حَدِّها   ما يصدُّ الرُّوحَ عن هذا الضياءِ
كلُّ ما فيها ابتكارٌ دائمٌ   فابتكارُ الفنِّ في غيرِ انتهاءِ
أنتَ أنتَ الجوهرُ الفرْدُ الذي   مَنْ يَنَلْهُ يَمتلكْ رُوحَ البقاءِ

موكب الجمال

حججنا إليه مُحرمينَ، وإن يكنْ   تجرُّدُنا مِنْ نَزوةٍ وصَغارِ
ولكنَّ قلبي ما تجرَّدَ لحظةً   من النارِ، إنَّ النارَ بعضُ شعاري!
حججنا إليه والهوى يسبق الهوى   إلى الهيكل الضاحي إلى المعبد الحالي
فلمَّا بلغناه هوى يلثم الثرى   رفاقي، وباحوا للجمال بآمالِ
ولكنني أُخرِسْتُ من رهبة له   كما تُخرسُ الشمسُ الحمامَ طلوعا
فلما أفاقت مهجتي من ذهولها   تَدفَّقَ قلبي بالنظيم دموعا
وأودعتُ نفسي في قصيدةِ شاعرٍ   تَحرَّرَ إلا من عبوديةِ الحسنِ
وصار إلهًا وهو عبدٌ لوحيه   كذلك ربُّ الفنِّ إنْ عاش للفن
فلمَّا انتهينا من نشيدي وشدوهِم   وكم ملءَ تعبير الفنون جنونُ
تبسَّم هذا الحسنُ حين ابتسامُهُ   فتونٌ، وما كلُّ الفتون فتونُ
أخذنا عليه العهدَ من بَسَماته   وصرنا رجالَ العزْفِ والنقشِ والحفرِ
وأُلْهِمْتُ تقديسَ الجمالَ روائعًا   مِن الشعرِ حين الشعرُ أليقُ بالشعرِ

الصبا الدائم

جَرت السنونُ كأنني ما شِمْتُها   تَجْري، فلم أبرح سِنين صِبايَا
فإذا عشقتُ عشقتُ مِن رُوحِ الصِّبا   فلقد تعلَّقَ بالجمالِ نُهايَا
ما شاب قلبي في ربيعِ محبةٍ   لا يَنتهي حتى اتَّهمتُ خُطايَا
روحٌ تفيض على الزمان صبابةً   فإذا الجمالُ مُحاصَرٌ بهوايا!

كنز الحب

يُعذَّبُ قلبي بالمحبة بينما   تَملَّكَ منه الحُبُّ كلَّ شغافِ
وأُشْبِعَ هذا الكونُ من حُبِّهِ غِنًى   وما الكونُ للقلبِ المحبِّ بكافِ
فأين حبيبٌ يملك الحبَّ كلَّه؟   وأين حبيبٌ للمحبةِ واف؟
فما غيرُ حُسْنٍ في عوالِمِ سحرهِ   كفيلٌ، وما غيرُ التجاوبِ شافِ؟

البتول

نظرتْ إلى المرآةِ ثم تأمَّلتْ   تلك المحاسنَ في الرَّواءِ النَّادرِ
فاستصغرت شأوَ الزمانِ وأهله   ولو انهم خضعوا خضوعَ الصاغرِ
واستكبرتْ وأبتْ إجابةَ سؤلهم   كتكبُّرِ القدَرِ المُطِلِّ الجائرِ
لم تلقَ فيهم مُشبِعًا لشعورها   بحنانهِ الفذِّ القويِّ الزاخرِ
فمضت تُجانِبُ كلَّ قلبٍ طائرٍ   ونأت تُباعد كلَّ روح حائرِ
حتى تلاقتْ والفنونَ بعاشقٍ   قلِقٍ وفي لحظيْهِ نفْسُ مُغامرِ
قتلَ النجومَ الحارساتِ حيالها   وسما إليها في جنون مُخاطرِ
فرأتْه حُلْمَ خيالها وتوقَّدتْ   أنفاسُها بشعورهِ المتطايرِ
لكنْ رأتْ هذا الوجودَ جميعَه   يأباه عبدًا للجمالِ القاهرِ

ويـصـونـه لـلـفـنِّ فـي حـريـةٍ كالنورِ لم يُخضِعْهُ أسرُ الآسر
فـعـنـتْ إلـيـه بـعـزّةٍ روحـيـةٍ وعنـا إلـيـهـا كـالـغِـنى لـلـسـاحـرِ
فغدت تُسَمَّى بالبتولِ وقُدِّسَتْ لِـعـواطـفٍ قـدسـيَّـةٍ ومَـشـاعـرِ
حُرِمَا وما حُرما، وقد خلبا النُّهى فالحُسْنُ لم يُخْلَقْ لغيرِ الشاعرِ

عزاء الفن

شـربتُ مـراراتِ الـحـيـاة ومَـنْ يـذقْ شرابي يرَ السُّلوانَ في جوِّه الفَنِّي
كـأنـي مـن الـرهـبـانِ أزهـدُ نـاسـك فإنْ كنتُ لا أُغْنَى فإنيَ مَنْ يُغْني
وكم طُفْتُ بالشُّهدِ الشهيِّ على الورَى ومِنْ عجَبٍ أُسْقَى الجحودَ مع المَنِّ!
فـيـا نـعـمـة الـدنـيـا عـفـاءً فـإنَّـنـي لأحقِرُ ما وزَّعتِ حَوْلي من الغَبْنِ
خذلت ولائي واستـبحتِ مـواهبي وإنـي عـلـى فـقـري إليـكِ لـمـسـتـغنِ
سأقتل نفسي في الكفاح تخلُّصًا من الدَّيْن لو أني أسيرُكِ مِنْ دَين
أوزِّع نـفـسـي فـي صـوالـح جـمـةٍ أشـيـدُ بـهـا لـلـعـلـم والـفـكـر والـفـنِّ
وأخـلـق أمـثـالَ الـجـمـالِ لـمـهـجـتـي وأقبس من روح الرشـاقةِ والـحسن
ومـا لَـكِ مـن فـضـلٍ عـلـيَّ فـإنـهـا روائـعُ مـا يـهـوى ويُـبـدعُـه ذهـنـي!

الصدى

يا مَنْ إليها حنيني ومَنْ لديها حياتي
ومَنْ نأتْ وهي تدري ولستُ أدري شَكاتي!
أصبحتُ مثلَ طريدٍ مُـشـرَّدٍ فـي الـفـلاةِ
أو كالصَّدَى من غناءٍ حـيـاتُـه كـالـمـمـاتِ
أو كـالـحـبـاب لـخـمرٍ يَضيع بين السُّقاةِ
أو كالشَّذى في نسيمٍ والـزهـرُ غيـرُ مؤاتـي

كم نِلْتُ عطفًا وحُبًّا   مـن الـهُـواةِ الـرُّواةِ
ولم أذُقْ غيرَ وجدي   وغـيرَ حـرمـان ذاتـي
ما للصَّدى من وجُودٍ   إلا كـإشـفـاقِ عـاتِ
إذا نـأيـتِ فـذاتـي   وهمٌ ووهمٌ حياتي!

زنبقة المطر

لمَّـا تـلاقـيْنَـا تـفـتَّـحَ خـاطـري   وافترَّ قلبٌ بـالـغرامِ وقد سَكرْ
فتعجَّبَ السُّمَّارُ منه، وما دَرَوْا   سرَّ الحياة، وما رَأَوْا أصلَ الشَّرَرْ
وقبستُ منكِ النُّورَ والنارَ التي   تُحْيِي وقد جُمِعَا بطلٍّ ما انتثرْ
وَحْـيٌ يُـنـالُ كـأنـمـا فـي وَقْـعِـهِ   وَقْعُ الأشعَّةِ والحياةِ لمن شَعَرْ
فتفتَّحتْ نفسي بكلِّ رحيقها   وكأنما هي مِنْكِ «زنبقةُ المطرْ»[٥]

دميتي

دُميةَ الطفلِ ومعبودَ الكبيرْ   وَمـلاذي كـلَّـمـا خـانَ الـزَّمـانْ
كيف بدَّدتِ مُني القلب الكسيرْ   بـعـدمـا أسـقـيتِـه حُـلـوَ الأمـانْ؟

* * *

آهِ من دُنيا مَشى فيها العُقوقْ   وَتجَنَّى في تصاريفِ الجمالْ
أصبح الخصمُ بها مثلَ الشقيقْ   وغدا المحسوسُ فيها كالخيالْ!

* * *

[٥] تتفتح «زنبقة المطر rain lily» سريعًا بتأثير المطر، وهي من النباتات العسلية المحبوبة.

كنتِ لي الدُّنيا وأخرايَ معًا لم تَعُدْ دنيا ولا أخرى لدَيَّ
كلما الذكرى أهاجتْ مَدْمعًا أحرقَ الدمعُ وناري شفَتَيَّ!

* * *

آهِ من ظُلمِ الهوى للتَّابعيةْ عُوقبوا منه ومِن أعدائهِ
شُرِّدوا في الدهرِ تشريدَ السَّفيهْ وتَسلَّى الحُبُّ في غلوائهِ!

* * *

قِبلتي في القُرْبِ والبُعدِ وفي أيِّ مثوًى وزمانٍ لِصلاتي!
ضلَّ مَن يَحسبُ إيماني الخفي هو ما أُبديه من سلوى حياتي

* * *

لم يَعُدْ لَحْظي يُوافي مسمَعي لا ولا قلبي يوافي خاطري
نضب النَّبْعُ فأقصى مطمعي رَحمةُ الموت وقبرُ الشاعر!

الحنين

هدأةَ الليل جَرَحْتِ لي فؤادَا كلما التامَ تَصَبَّاهُ الخيالْ
كان لا يعرف في الدنيا حِدادَا لا ولا يعرف معنًى للمُحَالْ

* * *

كان يَستوحيكِ ألوانَ التَّناجي كيف أصبحتِ له ضوضاءَ هَمٍّ؟
يلمح النارَ بأفقٍ فيكِ داجِ وضحايا الحُبِّ من صدقٍ ووهمِ!

* * *

أين شعرٌ كان من قلبي يُغَنَّى ويُغنِّيه على قلبي النسيمْ
مات كالضوء فلا مَبْنًى ومَعْنَى لفؤادٍ يُحْرَمُ الحسنَ الرَّحيمْ

* * *

يخطف الذكرى خيالي من سماءٍ حَلَّقَت فيها وجافتني وعادتْ
فيرى الذكرى فؤادًا في دماءٍ ليتها في هجريَ القاسي تمادتْ

* * *

إيهِ يا دنيا أحِرماني حلالٌ وعَذابي من عباداتي وحُبِّي؟!
يملأ الكونَ جمالٌ وخيالٌ وحرامٌ أن يزورَ الحُسنُ قلبي!

الشريد

قطعيني رحمةً ثمَّ ادفنيني إنما التشريدُ تعذيبُ الغبينِ
هِمْتُ في الدنيا على وجهي أنادي بفؤادٍ يشتفي من كلِّ وادِ
فأبى الحرمانُ حتى رجعَ صوتي وتماديتِ بهجرٍ فات موتي
رُبَّ موتٍ هو نُعْمَى لا تُنالْ كم تمناها فؤادي في الخيالْ
إنْ تملَّاك قليلًا في رَجاءْ غبتِ كالشمس توارت في الشتاءْ
وتعود الشمسُ جودًا في الربيعْ وأنا المحرومُ كالأعشى الوضيع
بينما الإيمانُ روحٌ لبنائي وكذا إيمانُ إلفِ الصحراءِ
جُنَّ قلبي في التياع المضطربْ وبَكتْ نفسي بصمتِ المنتحبْ
وتولتني من الحيرةِ ما لا تعرف الإيمانَ صُلحًا أو قتالَا
فإذا بي كدتُ لا أعرف نفسي وكأنَّ الرزءَ تكويني وحسِّي
وإذا الإيمان عبءٌ لي جديدْ حينما الإيمانُ مُلكٌ للسعيدْ
حالتِ الدنيا فخيرُ الناس ضُرِّي رُبَّ حُلْوٍ لعليلٍ شبهُ مُرِّ
آهِ من ضيقٍ تعالى فوقَ صَدْري دافنًا روحي فصدري مثلُ قبري
وكأني والأسى يغلب حسِّي وظلامُ الهجر في مرأى ولمس
كشريدٍ والرعودُ القاصفةْ أسلمتْه لجنون العاصفةْ!

الطفولة

أسرِفْ بلهوكَ يا بُنيَّ فإنما — لهوُ الطفولةِ نعمةُ الأيامِ
وانهلْ وأختيكَ الحياةَ طليقةً — مِنْ قبل أن تحيا حياةَ الظامي
أُزجرْ همومكَ يا صغيرُ وإن تكنْ — مَرَحًا ووحيَ الشاعرِ الرسَّامِ
أُغنيتُ في نظري إليكم عُصبةً — للأنس عن نورٍ وزهرٍ نامِ
مَرْأًى يُطلُّ الشعرُ من أنحائهِ — ويُزوِّدُ الإبداعَ بالإلهامِ
أنتم مُلوكُ الأرضِ آلهةُ السما — خلعوا على الدنيا جمالَ سلامِ
يا للطفولة قوةٌ في ضعفها — تغزو القلوبَ بمحض الاستسلامِ
لم يخضع العقلُ الحصيفُ لغيرها — إلا خُضوعَ العاثر المتعامي
فِتنُ الغواني الساحراتِ إلى مَدى — حين الطفولةُ فتنةٌ لدوامِ
لم ألقَ مثلَ أبٍ وأمٍّ قدَّسَا — طفليهما في نشوةٍ وغرامِ
وَجَدَا المصائبَ نعمةً في قربهِ — والحظَّ آيةَ ثَغْرهِ البسامِ

الرشاقة

قُلْ للرشاقة: هذه مَرآكِ — رقصتْ على الأزهار والأشواكِ!
عُزِفتْ لها الأنغامُ وهي كأنها — نَغَمٌ من الأحلام والإدراكِ
ذابت كذوبِ النهر بين خمائلٍ — والنهرُ بين تسلسلٍ وتباكي
واللَّحنُ يضحك تارةً، وهنيهةً — يبكي، فيلعب بالفؤاد الباكي
سِيلي مسيلَ خواطرٍ وعواطفٍ — ما سِلنَ في كنَفِ الهوى لولاكِ
في كلِّ حالٍ منكِ أَلْفُ معبِّرٍ — عما يكتِّمهُ الجمالُ الحاكي
يَدري به العشَّاقُ إنْ لم يَدره — مَنْ لم يَذُقْ مَرْآكِ أو مَعْناكِ
البحرُ تحتكِ واثبٌ ومُرَقَّصٌ — لمَّا رَقَصْتِ وفي أنين الشاكي
أحسنتِ يا بنتَ الحياةِ فهكذا — روحُ الحياة، وهل لها إلَّاكِ؟
هَفَتِ العيونُ إليك وهي نفوسُنا — وهفتْ إليك نواظرُ الأملاكِ

***

إنَّ الـذي جـعـل الـجـمـالَ مَـنـارةً   لـلـحـبِّ لـم يُـحـرم مُـنَـى الأفـلاكِ!
يـا لـيـلـةَ الـكَـزِنـو وَعَـيْـتُـكِ نـعْـمـةً   وحفظتُ في قلبي الشجيِّ نَداكِ
في هذه الساعات أعمارُ الهوى   فـإذا مَـضَـتْ عشنا ببعضِ مُناكِ!
هذي المُنى والذكرياتُ وجودُنا   ولـو انَّ أهـلَ الـحـبِّ رهـنُ هـلاكِ
عاشوا على الأخطار، حتى صفوُهم   خطرٌ، وحتـى الأمنُ بين شِراكِ!
عبدوا الرشاقةَ والجمالَ وآمنوا   بـهـمـا فـمـن خـلـقَ الـقـلـوبَ يَـرَاكِ
فـإذا عُـبـدتِ فـكـلُّ ديـنٍ شـافـعٌ   وإذا جُـحـدتِ فـلـن يُـغـيـثَ سِـواكِ

صوت

صـوتٌ يـذوب حـلاوةً ونـعـومـةً   وَيخوضُ أسلاكَ المسرَّةِ[٦] شاديَا
فأكاد أختطفُ الزَّمانَ توَثُّبًا   لِمَداهُ إذْ أجدُ الـخـيـالَ مؤاتـيَا
وأكاد ألثم في شُبوبِ عواطفي   ثَـغْـرًا حَـكـاهُ وإنْ تَـمَـثَّـلَ نـائـيَـا

إلى الكنيسة في يوم الأحد

خـطـرَ الـحـسـنُ لـلـصـلاةِ بـدارٍ   كـلُّ مـا تـحـتـويـه وحـيٌ جَـلـيُّ
خطر الحسنُ كالقصيدِ المحلَّى   بـخـيـالٍ يَـغـيـب عـنـه الـرويُّ
أبـدعـتْـه عـواطـفٌ لـن تُـسَـامَـى   وتـولَّاه شـاعـرٌ عـبـقـريُّ
كل شـيءٍ يـمـسُّـه نـال حِـسًّـا   مـسـتـعـزًّا فـذلـك الـمـيـتُ حَـي
نُـوِّرَ الـتُّـرْبُ تـحْـتَـه وتـغـالـى   فـي عـبـاداتـه الـزَّمـانُ الأبـيُّ

---

[٦] التليفون.

لم تَزِدْهُ الكنيسةُ اليومَ إلَّا نفحةً حازها الأريضُ النَّدِيُّ
زَهَرُ الرَّوضِ لم يزده الندى الحلـ ـوُ شميمًا فعطرُه الألمعيُّ
إنما يحدث التآلفُ في الكو نِ جمالًا فيستعزُّ الغنيُّ

الخلسة

سلكتْ بي الأقدارُ مسلكًها السا حرَ حتى بلغتُ جنةَ خُلدي
فإذا بي أرى النعيمَ عِيانًا وكثيرًا ما كان وعدًا لوعدِ
لحظةٌ منه في يقين وجودٌ لا يُقاس الوجودُ منه بِحَدٍّ
فلثمتُ اليدَ التي لمستْني في حنانٍ يُخالُ مَظهرَ صدٍّ
وتنفستُ مِن عبيرٍ حوتْهُ وأذاعته عطرَ زهرٍ وشهدِ
وتطوَّعتُ كالضحايا إذا ما ساقها الحُسنُ للمماتِ المُعَدِّ
هيكلُ الحبِّ لم يُعرَّفْ بقلبٍ دائم الحظ أو يُخَتَّمْ بعهدِ
تُخلق المعجزات فيه وتُطوَى معجزاتٌ وما له مِن مَرَدِّ
في نواحيه كالزهور قلوبٌ ذابلاتٌ وغيرها رهن وَجْدِ
بُعثِرتْ وهي بالشَّجَى ناظراتٌ لخيالي وبالمُنى والتحدِّي
أيُّ دار هذي التي تعبر الأحـ ـلامُ فيها ويُسحَر المتصدِّي!
مَعبدُ الحسنِ والفتوَّةِ والنو رِ ومجلى الطموح من فوق لحدِ
ينظر الحبُّ فيه من ألفِ عينٍ ويرى الصمتَ مستثيرًا لردِّ
ويرى النارَ من دماءِ ضحايا هُ، ونورَ الدجى أفانينَ وَقْدِ
وتموج الأضواءُ كالقلق الآ سرِ قلبا على خفوقٍ أحدِّ
مَربأ السحرِ والفنون اللواتي صاغها الربُّ بين لهوٍ وجدِّ
ثم أوحى إلى عباقرةِ الحسـ ـنِ ليحظوا بلهوه المستمدِّ
إنَّ سُكرَ الأرباب أعجب ما يو حي بدنيا من انحطاطٍ ومجدِ!
يلمح الشاعرُ المفاتن فيها والمهاوي لألف ربٍّ وعبدِ
بسمتْ لي، فقلت: يا بسمةَ الخلـ ـدِ أطيلي المنى وإنْ كنَّ لحدي

وحبتني مِن خُلسة الحبِّ بالفذْ ذِ وإنْ لم يكن سوى الوهم عندي
مُهجٌ تُستبَى فما مهجة الشا عرِ إلا الآلافَ من كل فرد
وقرابينُه كفاءٌ لحسن ملكَ الكونَ من حياةٍ وجَمْدِ
ذقتُ خُلدي في خلسةٍ ثم لم أدْ رِ أغابَ الشقاءُ أم كان سعدي
وتغنَّيتُ، والأغاني تهاويـ ـلُ فؤادٍ مصوِّرٍ غيرِ صلدِ
فإذا بي أرى غنائي نحيبًا وإذا بي أرى اغتنامي كصدِّي!

المساء في الصحراء

دنا الليلُ والصحراءُ في روعةٍ له وإنْ لُمِحَتْ في راحةٍ وسُكونِ
ولم يَبْقَ من شمس الغروب ونورها سوى لوعةٍ في صُفرةٍ وحنينِ
تُقبِّل كثبانَ الرمال، وكلُّ ما تُقبِّل في وجدٍ ويأسٍ حزينِ
غزتْها جنود الزِّنج والوقتُ مسعفُ وكم داولتها في ألوف قرونِ
هو الوقتُ لا يرعَى جمالًا برحمةٍ وكلُّ سعيدٍ عنده كغبينِ
دنا الليلُ والشمسُ السخيَّةُ أخلفتْ حرارتُها موتًا وبُخلَ ضنينِ
وأقبل قُرُّ الليل قبلَ مجيئهِ فيا لخئونٍ سابقٍ لخئونِ!
تهاربَ منه أهلها وتجمَّعوا على النار مثلَ العابدين لدينِ
ومدُّوا الأيادي السائلاتِ نوالها فنادت عليهم في لسان مُبينِ
ووزَّعتِ السحرَ الذي يرتجونه حياةً وإيناسًا وأمنَ أمينِ
تكاد العيونُ الناظراتُ لهيبَها تَناولُ منها ذُخْرَها لسنينِ
وتبخل حتى بالدخان يفوتها وتُؤْخذُ من ألوانها بفنونِ!
وقد وقفَ الجمَّالُ كالجملِ الذي أطلَّ عليها في خشوع مدينِ
كأنَّ بها للشمس رُوحًا تنوعتْ وقد سُجِنَتْ لكنْ كغير سجينِ!
وهل دانت الصحراء إلَّا لشمسها جمادًا وحيًّا قبل وجودِ عُيونِ
كأنَّ تلال الرمل كنزُ أشعةٍ من الشمس فاعتزَّتْ بكلِّ ثمينِ
دنا الليلُ فاخطفْ قبل فوتٍ منوَّعًا من الظلِّ والأصباغ غيرَ مهينِ
فهذي صنوفٌ من حياةٍ تبدَّدتْ وهذي معانٍ مِنْ مُنًى ومَنونِ

الناس

خبرْتُ طباعَ الناس عُمرًا فلم أجدْ ... أَحَطَّ ولا أغبى من اللؤم في الناس
وما الحيوانُ الماكرُ الواثبُ الذي ... يُردِّيكَ ما بينَ الخيانة والياس
بأبشعَ في غدرٍ من اللُّؤم في امرئٍ ... تناسَى أخاه في المرارة والياس
علامَ اقتتالُ الناس والدهرُ ضاحكٌ ... عليهمْ وكلٌّ كالجريح بلا آس؟!
لِننعمْ من الدنيا ولكنْ كأننا ... ضيوفٌ فما نُغْرَى بحقدٍ ووسواس!
يلاطفُ بعضٌ بعضَنا وجميعنا ... يلاطف دنياه بشكرٍ وإيناس!
ألَسْنا ضيوفًا عندها فحقوقُها ... حقوقُ ولاءٍ لو يُكال بمقياس؟
سَخطْنا عليها سُخْطَ جهلٍ بطبعها ... فيا لعقوق الساخط الجاهل الناسي!
وجُزْنا حُدودَ الضيف في كل نزعةٍ ... فلم نسْمُ في ذوقٍ وهُنَّا بإحساس
وما مَثَّل الدنيا بأقتم صَبْغةٍ ... سوى أهلها بالغدر والعَبَثِ القاسي
فكانوا شرابَ الكأسِ وهي بهيةٌ ... فلمَّا دَجَوا عابوا الظلامَ على الكاس!

عمري الجديد

يا حاسبَ الحظِّ في حُبِّي وفي أدبي ... وناسيًا بثَّ أنَّاتي وآهاتي
ما هذه نفثاتِ الوجدِ صاعدةً ... لكنها مهجتي ذابتْ بأنَّاتي
آثرتُ قصفَ شبابي حينما اغتربتْ ... نفسي بدنيا التدنِّي والإساءات
فصرتُ أنفق ساعاتي بلا كللٍ ... في الجهد، محتقرًا لذَّاتِ ساعاتي
كأنني صِرتُ من دنيايَ منتقمًا ... آبَى لها فضلَ إيجادي ولذَّاتي
إن كان فضلٌ لها خَلقي فقد خلقتْ ... نفسي لأبنائها شتَّى المسرات
كما خلقتُ شُخوصًا من مخيِّلتي ... وقد خلقتُ جِنانًا من خيالاتي
أحيا كدودًا لأفني العمرَ مبتدعًا ... عمرًا لنفسيَ من فنِّي وآياتي
فصرتُ مثل إلهٍ لا انتهاءَ له ... قد صاغ تكوينَه من روحه العاتي
فإنْ يعشْ فهو عمرٌ لا مثيلَ له ... وإن يمتْ فهو عيش اللانهايات!

موت وحياة

أهاج دويُّ البحرِ صرخةَ آمالي وبدَّد أحلامي وبَلبلَ بلبالي
رأيتُ به الأمواجَ ملءَ اصطخابها تَقاتلُ مثلَ الحظِّ في عمريَ البالي
وتلتهم الصخرَ الأشمَّ أمامَها كما طوَّح الدهرُ الخئون بآمالي
تأمَّلتُه في حيرةٍ بعد حيرةٍ وفي وجلٍ تالٍ على وجلٍ تال
وقد جدَّد الحزنَ الذي نال مهجتي سنينَ كأني حاملٌ همَّ أجيال
رأيتُ به عقبى الحياة ومنتهى مطامحها العليا من الحبِّ والمال
هشيمٌ من الأمواج قتلى وكم بها عواطفُ ضاقتْ بالحياة وأمثالي
أُطلُّ عليها في وجومٍ ولوعةٍ كأني أرى الأخرى أمامي وأهوالي
وقد نسيتْ نفسي وُجودي وأشعِرت وجودًا من الآلام في روعة الحال
فيا حزنَ قلبٍ كالغريب بعالمٍ غريبٍ لأهليه الأبرِّين والآل
دفنتُ أسيفًا عزمتي ومواهبي لدنْ عدَّ من ذنبي همومي وأعمالي
وحيًّا أخلَّائي جهودي وما دروْا جهودي التي ماتت لحزني وإقلالي
فيا موجُ مُتْ حولي فموتُكَ راحةٌ وموتُكَ مِرآةٌ لموتي وإذلالي
وإنْ كان لي في الفكر دنيا جديدةٌ تعالتْ عن الدنيا بإحساسها العالي
غنمتُ بها روحَ الجمال التي سمتْ عن الجسمِ واستولتْ على حبيَ الغالي

شعر التصوير

حَكَتِ النقوشُ وقبلها الأطلالُ فتماثلَ البنَّاءُ والمثَّالُ
هذي تهاويلُ الحياةِ بما وَعَتْ في اللوح تعمرُ فنَّها الآجال
أيَصُدُّ عنها الشعرُ وهي بروحهِ خُلقتْ وتجذب وحيَه الأطلال؟
مُرِّي أيا صُوَرَ الجمالِ فإنني أستعرض الأحلامَ وهي جلال
متذوِّقًا ما رفَّ قلبي نحوه ومقبِّلًا ما طَبْعُهُ الإقبال
ليست خيالًا، فالخيالُ وإنْ دنا يهوى الجموحَ ودأبُه الإجفال

فيعانق الشعرُ الرُّسومَ إذا بدَتْ ... تختال في سحرٍ له وتُنال
في كل لونٍ بل ونفضةِ ريشة ... للعبقري تَلَفُّتٌ وسؤال
يستنطق الأصباغَ وهو مقدِّرٌ ... أن الحياة أشعةٌ وظلال
ويبادلُ الإلهامَ ما يُعنَى به ... إنَّ الفنون تَجاوبٌ ونوال
في الصخر أو في اللوح أو في العُشب أو ... في أيِّ معنى للوجود يُدَال
صُوَرُ الحياة وباعثُ الشعرِ الذي ... تعنو النفوس له ويحلو القال
الشعرُ في الدنيا بكل صغيرةٍ ... وكبيرةٍ لو تُحْصَرُ الأمثال
والشاعر المطبوع يخلق شعرهُ ... بالوصف ما لا تخلق الأجيال
يهب المعاني من صميم فؤادِه ... رُوحًا يُصيب بها الجمالَ جمَال
وسواه في حكم الضرير فلا يرَى ... حسنًا وتعثر حوْلَه الآمال
أنا لا أدين لما وصفتُ وإنما ... الدَّينُ للشعر الذي يختال
ترك الكواكبَ مُصغياتٍ مثلما ... أصغتْ له الأمواجُ والأجبال
سكنتْ وقد فُتِنَتْ بأوصافٍ له ... فكأنَّه راعٍ وهنَّ عِيال!

دنيا الحسن

ماذا أقول لحسنٍ في تخطُّره ... ينسى محبيه حتى في تعثُّرِهِ
هوتْ قلوبٌ لتوفيه حمايتَه ... فما جنتْ غيرَ لوم من تأثره
يأبى رعاياه حين الربُّ يشملهم ... وينفض الحبَّ نفضًا في تكبره
حِرنا أمام تَغالٍ من غوايته ... وما لحظنا خيالًا مِن تحيره
لا يستقرُّ قرارٌ مِن تَوزُّعِه ... ولا يدوم سلامٌ من تهوُّره
دنيا اعترفنا بعجز عن تصورها ... والحكم في الشيء فرعٌ من تصوره

دموع الشتاء العابث النادم

نظمت في يوم مطير بالإسكندرية:

بكى بدمع الأسى أو دمع شاعرِهِ ... وقد تجلَّى بلونٍ من مشَاعرِهِ
ضاعَ الرُّواءُ وغاب الحُبُّ وامتقعتْ ... مَشاهدٌ طالما هشت لشاعره
لم تبقَ غير دموع الذكريات له ... ووحشة ما لها حَدٌّ لناظره
فالماءُ كالميت لا روحٌ تُطلُّ به ... وإنْ حسبناه ماءً في تناثره
والتربُ لا تشكر الأقدامُ موقعَها ... منه، وكم رقصتْ في ساح ناضره
والروضُ كالهيكل المصدوع ما بقيتْ ... منه سوى ذكريات من مآثره
تجري المُنى حوله ثكلى مروَّعةً ... كما جرَتْ أدمعٌ في إثر طائره
فيا غمامُ أطلْ سَحًّا على زمن ... الحسنُ والنورُ بعضٌ من خواطره
أنت الحريُّ بسكب الدَّمع في شجن ... فقد صحبتَ قديمًا غرسَ ساحره
وقد نظرتَ مرارًا في سرائره ... كما سكبتَ نُضارًا في أزاهره
واهًا على زمن كان العناقُ به ... يطيب ما بين مأسور وآسره
والجوُّ مبتسمٌ بالعطف مؤتلقٌ ... والطير ينشد حلوًا من بشائره
حتى تلألأ هذا الكون من شغف ... ملءَ القلوب ومِنْ صفوٍ مُناصره
فالآن يبلى كتابٌ لا بيانَ به ... كأنه لهوُ طفل في حفائره
والآن يُبكي نعيمٌ لا وجودَ له ... إلا خيالًا شهيدًا في مقابره
والآن يملأ سمعَ الدهر مرثيةً ... مَن غيَّبَ الحسنَ حتى عن عباقره
السُّحبُ تبكي بدمع للشتاءِ أسًى ... فكيف بالوجد في إحساس شاعره؟

بنت النيل

أتمَّ النيلُ رحلتَه وأضحى ... كريمًا بالخيال وبالنوال
فلاحتْ بنتُه في الروض تسقي ... بخمر جمالها صرعى الجمال
قد اصطبغت بصبغته وطافت ... بفتنتها على المهج الغوالي

تسيل رشاقةً ويسيل تبرًا ويحتكمان في حظ الرجال
ويقطر لفظها باللحن حتى ليُرشَفَ في خشوع وابتهال
تأمَّلَ بلبلٌ غنى، وأصغى بسمع مدلَّهٍ وافي الخيال
وشاركت الأزاهرُ عاشقيها ففاضت بالعبير وبالسؤال
وتمشي في اعتدال القدِّ فخرًا لألوان الملاحة والجلال
ويصحبها النسيمُ وقد تندَّى بنضرتها فينعش كلَّ بال
وتتبعها القلوبُ بلا ملال وهل تهوى القلوبُ بلا ملال؟
ويخطر جَنبها حسنٌ دخيل[٧] فتمنحه المجالَ ولا تبالي
كأنَّ الكائنات لها عبيد من القمر المطلِّ إلى الرمال
تلألأ وجهها بالضوءِ، لكن بضوءِ النيل والنبت الموالي
فكانت رُوحَه الساري المحيِّي نفوسًا كنَّ من هذي الظلال
تُغَذَّى من صباحتها وتنمو برقتها فتنعم بالكمال
ويُعبَد قُربَها الصخرُ المعلَّى بتقديس الخوالدِ والخوالي
ولم يَدر الأُلَى حجُّوا وزاروا وناجَوْا مصر في ماضٍ وحال
بأن فتاتها هي سحرُ «منفٍ» وآيةُ حسنها الفذِّ المثال

نشوة اليأس

دعوني أناجي اليأسَ في نشوة اليأس ولا توهموني أنَّ حوليَ ما يُنسي
أعيش بأرضٍ للشياطين والأذى تُصَبَّحُ في رجسٍ وتُمسي على رجس
حرامٌ علينا مَأملٌ في ربوعها وفيها تجلَّى مصرعُ الفكر والحس
علام التمادي في المنى حينما نرى ضحايا المنى أضحوكة الحظِّ والبؤس؟!
أنعلق بالآمالِ في البلد الذي يصول به مَنْ صال بالشرِّ والدسِّ؟
خِفافٌ إلى الإفساد في كل مطلبٍ ثقالٌ على الإحسان، حربٌ على النفس

[٧] إشارة إلى الجمال الأجنبي الذي تمنحه المصرية فرصة الظهور دون أن تخشى منافسته إياها.

يـبـاهـون بـالايـذاء حـتـى كـأنـمـا   يبزُّون في الهيجاءِ «عنترة العبسي»!
عجبتُ لشمسٍ أشرقت في سمائهمْ   وقد خُلقوا حربًا على النور والشمس!

بعض القرابين

غُضِّي أماني العلى عني وعاديني   فاليومَ يُنكر سمعي من يناديني
عِفْتُ التفاؤلَ إذْ ضحيت فلسفتي   علـى مذابـح تبـريـحـي وتـأبيـنـي
الـعـمـرُ ضـاع بـأحـلام أداعـبـهـا   كالطفل يلهو بنَوَّار البساتين
مضى زمانٌ كأنَّ النحل تغبطني   للجهد والدَّأب في بؤسٍ وفي لين
فالآن والنجح موفورٌ له سببٌ   أرى الحظوظ حيارى كالمجانين!
دنـيـا تـخـبَّـط أعـلاهـا بـسـافـلـهـا   فما انتفاعي بدنيا قدرُها دوني؟
لا تُخذَل النفسُ إلا من حقارتها   ولا يـدوم الأسـى إلا بـمـفـتـون
أصبحتُ أزهدَ محسودٍ لنخوتهِ   وصرتُ أعقلَ مجنونٍ ومأفون!
وبتُّ أضحك أو أبكي بلا سبب   سوى مهازل عيش غير مأمون
تسمو الشواهينُ فيه وهي جاهلةٌ   أنَّ الـسـقـوط مـآلٌ لـلـشـواهـيـن
قد كنت أُصغر من يشكو الزمان، فما   أصـبـحـت أُكـبـر إلَّا كـلَّ مـحـزون
ساوى الزَّمانُ أحبائي وآصرتي   بمن يروم هواني أو يجافيني
فيا لضيفٍ أقمنا عند ساحته   على الولاءِ فكنا كالمساكين
ويا لدنيا يسوءُ الناسُ بعضهمو   بعضًا ليلهوا، وهم بعضُ القرابين!

المجاهد الجريح

شهدتُ من الدنيا المعاركَ، والمنى   تسوق الفتى نحو المعاركِ والخطبِ
فـصـرتُ كـجـنـديٍّ جـريـح مـضـمَّـدٍ   يـئـنُّ ولـكـن كـم يـحـنُّ إلـى الـحـرب
ويهرب من حُكم الحجى في وُثوبه   إلى ساحة الهيجاءِ والموقف الصعب

تملكه اليأسُ العنيف، وإنما بثورته أفناه في الطعن والضرب
فما اليأس إلا شاحذ النفس للعلى إذا خُلقتْ من معدن صادق عضب
تئنُّ أنينَ الصُّلب، حتى إذا طغى أنينٌ له تلقاه يضرب في السحب
فلا تحسبوني في الهزيمة غارقًا أغوص ولكن لا يُخاف على قلبي
ولا تحسبوني خاشيَ الحرب مرة وإن تك حربَ السلم للفن والحب
سجيةُ نفسٍ عُوِّدتْ من إبائها جلال الغنى والخصب في الفقر والجدب
توالت جراحاتي وأوذيتُ دائمًا وهيهات أُلقي من سلاحي ومن دأبي
فليس خصيمي غير قلبي إذا ونى وهيهات يرضى أن يقرَّ به جَنْبي
تركتُ تصاريفَ الزمانِ بحيرةٍ وقد عجزتْ عن أن تسود على لبي
تشاءمت لكن حالَ ذاك تفاؤلي وأُبكيتُ لكن كم تبسمتُ من كربي
وما الشاعرُ الموهوبُ إلا ابتسامةٌ من الربِّ لا تعنو إلى الليل والسُّحبِ

مقاييس الزمان

ألم ترَ كيف ذاك الحسنُ ولَّى فحال من النقيضِ إلى النقيضِ
وأصبح مَدفنًا للزهر يُشجى وكان روائعَ الروض الأريض؟
فلا تأسف على إحسانِ قلبٍ يُجازَى السخطَ في البلد المريض
جرتْ فيه الحوادثُ في خبالٍ فما تدري العلوَّ من الحضيض
فكيف تروم أن تلقى وفاءً على أدبٍ من الأدب المهيض
حرامٌ أن تعدَّ الطرسَ ذخرًا وأن تعتزَّ من مُلك القريض
مقاييسُ الزمان قد استحالتْ فما أدنى الحبيبَ إلى البغيض!

الطهر

أشكو من الحرمان حين يطيب لي … هذا العذابُ المرُّ في حرماني
طَهَّرتُ روحي بالعذاب وإن هفتْ … روحي إلى إحسانك الفتَّان
أحيا لمعنى الحبِّ في مَرآكِ لم … يُخلَقْ لغير الفنِّ والفنان
وأصدُّ نفسي عن جَناك متى دنت … بخشوع مبتهلٍ إلى الديان
فأذوق أقسى الهجر وهو مُجانبي … وأعافُ أحلى الوصل وهو الداني

عيناك

ساءلتِ وحيَ الشعر عن عينيكِ … والشعرُ أطيافٌ تحنُّ إليكِ
صُبغتْ بألوان الضياء فورَّدتْ … خديك ثم زهت على شفتيك
وتجمَّعت ظلًّا ونورًا حائرًا … في حاجبيك وفي هوى عينيك
لا تسألي الفنانَ وصفَهما ففي … لحظيه مَرْأى الوصف عن لحظيك
يرنو إليك ولا يُرَدُّ، ومَن رأى … عينيك يُؤخَذ بالحنان لديك

متعة العذاب

بدَّدْتُ آهاتي ونثرَ دموعي … ورضيتُ نارَ فؤاديَ المفجوعِ
وصدفتُ عن قلق النسيم للوعتي … وعن الرياض تشبثت برجوعي
وعن المباهج في الطبيعة كلها … حين الطبيعةُ رَوعتي وخشوعي
واشتقتُ تعذيبي كأنَّ تَبتُّلي … هذا العذابُ وللشقاء نزوعي
خَلِّي صدودَك يستطيل فإنما … أحيا حياةَ مكفرٍ مفزوع
قد مضَّهُ الحرمانُ إلا شعلة … تُذكي لهيبَ الشاعر المطبوع
فيذوب في الشعر الحزين فؤادُه … ويضوع بين تَحرُّقٍ وولوع

فيعيش بالوجد الأليم كأنما هذا العناءُ له دواء الجوع
الحسنُ إن فات الحياةَ فأثرُه ظُلَمٌ، وما المطبوعُ كالمصنوع
ما قيمة الذكرى؟ وهل يغني المنى عن شمسها نورٌ كنور شموع؟!
أصبحتُ أسترضي العذابَ كأنني أخشى وصالَكِ بعد طول هجوعي
أفنَى يسامرني الشقاءُ ولم أجدْ غيرَ الشقاءِ مجفِّفًا لدموعي!

في عرس الربيع

فرحتْ بطلعته السماءُ فأرسلتْ هذي التحيةَ في دموع حنان
غسلتْ بها وزرَ الحياة وكم ترى هذي الحياةَ كثيرةَ الأدران
حفلتْ شقيقاتُ الربيع بعُرْسهِ فإذا الوجودُ مَثالثٌ ومثاني
وتَجلْبَبَتْ صُوَرُ الحياة بكل ما يجلو الحياة كدُمية الفنَّان
عُرسٌ يجدِّده الزمان وإنْ يكنْ جمَّ الفنون منوَّعَ الألوان
ونشيبُ نحن وما يزال شبابُه غضًّا على الأحداث والأزمان
نلقاه حينًا كلَّ عام ثم لا يبقى سوى حُلْمٍ ورَجْعِ أغاني

النجوم

بُعثرتْ في السماءِ حتى تراءَى خالقُ الكون مسرفًا في نظامهْ
حاكتِ الضائعاتِ من مُهَج الخلـ ـقِ، فكلٌّ بشُعلةٍ من غرامهْ
وتراءَتْ حينًا لنا قُبلاتٍ من فَمِ الدهر في عصور ابتسامهْ
ثم حينًا تلوحُ مثل ثقوب خلفها الغيبُ رابضٌ في غمامهْ
ينفذ الشاعرُ العظيم إليها حين يخشى القضاءُ بأسَ اقتحامهْ
فإذا عاد بعد إسرائه الكا شفِ أعيا الأنامَ مغزى كلامهْ!

حرب الإكراه

هيهات تنعم نفسي في مجانبةٍ بل تستحي من عدوٍّ لا أعاديهِ
روحي السلامُ، فما ذنبي إذا لُمِحَتْ في الحرب حين عدوِّي في تغاليه؟
إني لتطفئُ نارَ الحقد ما رُزقتْ نفسي من الحبِّ مهما اشتدَّ عاديه
لكنني عاجزٌ عن طبِّ ذي مرض يعيش للسوءِ في حظٍّ وتأليه!

التقديس

أنَّى رأيتُكِ رَفَّ القلبُ من شغفٍ وحاصر الحسنَ في تقديسكِ الأملُ
جسمٌ من النور تنبثُّ الحياةُ به ومنه للناس ألوانًا وتشتعل
لو كان لي حظٌّ تقبيل لما قنعتْ روحي بما ألفَ العبادُ أو أمَلوا
وكنت أغزوه تقبيلًا، وأُنهكه رشفًا، كما يتمادى الطائش الثمِل
حتى أراه طعينًا كله وبِه من الغرام جراحٌ كلها قُبَل
هذا هو الحبُّ تقديسًا لعارفه هذا هو الفنُّ يُسْتَهوى ويُحتَمل!

سيادة القناعة

ذروني أعشْ في طاقتي عيشَ سيدٍ ولا تُرهقوني بالديون إسارَا
فحسبي قيودٌ من حياة شقية وقد بات حولي المنقذون حيارَى
وما قيمةُ المجد الذي تشتهونه إذا كنت أفنى بالهموم مرارا؟
قنعتُ بعيش النحل يحيا لغيره ولكن عزيزًا لا يطيق صَغارا
يجيء إلى الدنيا كريمًا وينثني ويعطي الذي يعطي جَنًى وثمارا
ويقنع بالقوت اليسير كأنما يصون له القوتُ اليسيرُ يسارا
ويمتلك المجدَ الأصيلَ بسعيه إلى أن يُضحَّى كالشعاع نهارا

فحسبي إذن بذلي حياتي ونعمتي لـقـومـي مـثـالًا عـالـيًا وفـخـارا
هو المجدُ حين المجد في غيره دُنًى وحـيـن أرى حـظَّ الـغـنـيِّ مُـعـارَا
لخيرٌ لنفسي الهمُّ في نفع أمتي مـن الـهـمِّ فـي ديـنٍ تـأجَّـج نـارا
نعيش بدنيا تشبع الحرَّ قسوةً وتـجـزيـه ظـلـمًـا صـارخًـا وبـوارا
وترهقه في الغلِّ حتى كأنه غـريـمٌ أثـيـمٌ لا يُـكـيَّـفُ عـارا
فبتنا سكارى الهمِّ واليأس حينما حسدنا الألى قضُّوا الحياةَ سكارى!

الكون المتشائم

حان الربيعُ ولكن غاب مَطلعُه فما الرواءُ بنهر جفَّ مَنبعُه؟
رُدُّوا الكئوسَ فما راحٌ بمسعفةٍ إذا تشاءَم هذا الكونُ أجمعه
حُجبتِ عن ناظري الصديان فاكتأبت دنيا الجمالِ وعاف الفنَّ مبدعه
وشاطرتني الأسى، حتى النجوم لها دمعٌ وشجوٌ وبثٌّ كدت أسمعه
تتبعتْ شاعرًا في العمر بادلها حبًّا وألهمها عمرًا تَتبعه
فكاد يصدم مجراها تأوُّهه وكاد يصدع مبناها تَصدُّعه
وأنتِ يا نعمتي في الهجر ناعمةٌ والهجرُ للحسن تقتيلٌ ينوِّعه
أوَّاه من ظمأٍ قاسٍ على ظمأٍ ومن ظلام بوادي الموت مشرعه
الشاعرُ الخالد الفنان مندحرٌ والساحرُ النورُ خلابًا يضيعه
تخاصما فأذاقا الكونَ لوعتَه وأغرقاه بيأس كاد يفجعه
والفنُّ للكون إلهامٌ يضيء به فإن خبا فحدادُ الكونِ مطلعه!

كن أنت نفسي

كنْ أنتَ نفسي واقترنْ بعواطفي تجدِ «المَعيبَ» لديَّ غيرَ مَعيب
شِعري — الذي تأباه — أنفسُ مهجتي وكفاهُ أن يحيا بنفسِ أديب

عبثًا تحاول فهمَهُ بتحامُلٍ — إنَّ العداءَ يردُّ كلَّ حبيبِ
لو طِرْتَ في دنيا خيالي لم تكن — إلا رفيقَ مَسَرَّتي ووجيبي
ما كان هذا الشعرُ من لغةِ الورى — لكنَّه قلبي ورُوحُ حبيبي

السلوان

ذكريات الحب الأول:

ما لي أرومُ من الجمالِ عَزَائي — فأعود مغمورًا بروح شقائي؟
هيهات لي السلوانُ إنَّ تَعِلَّتي — ألَمِي، وإن تصبُّرىُ بُرَحائي
الذكرياتُ غذاءُ قلبي، بينما — لم ألقَ فيها غيرَ مُرِّ غِذائي
أحيا على الألمِ الدفينِ، وإنه — حَرَقي وإنْ حسبوهُ بعضَ شفائي
وأسائلُ السلوانَ حين يصدُّني — قلبي وصُبْحُ طفولتي ومَسائي
إني رُبيتُ على غرامكِ وحدَهُ — فالآنَ كلُّ هوًى رفيقُ عنائي
والآنَ كلُّ ملاحةٍ أشتاقها — ألقاكِ ماثلةً بها لِرجائي
وكأنني المحمومُ من حرمانه — فإليك — إن نادى سواك — ندائي
والناسُ تحسبني السعيدَ، وربما — بعضُ السعادةِ صورةُ الأَرزاءِ!

الطائر التائه

أيها الطائرُ عن وَكري الحبيبِ — أيها التائهُ في ليلِ الغريبِ
أنا في بُعدكَ في سُكرٍ وتيهِ — شدَّ ما ألقاه من قلبي السَّفيهِ!
تُظلم الدنيا لعيني حين عيني — تخطف الأضواءَ من لونٍ ولون
وترى في بُعدِكَ اللذات وَهْما — بعدما كانت ترى الأوهامَ نُعمى
أيُّ سحر يا حبيبي حالَ حسي — فنسيتُ الكون بل قلبي ونفسي؟
أسأل الغفران! ما نفسي إذا ما — أصبح الكون شتاءً وظلاما؟

أيـها الـطـائـر مَـن لـي بـدلـيـل ينقل الروح إلى الروح الجميل؟
أنا لن أنساك مهما غبتَ عني توأمي بل مُلتقى ديني وفني
طفتُ بالروح بدنياي جميعًا فإذا بي عدتُ مكلومًا صريعًا
أيُّ داج غبتَ فيه يا حبيبي غاب عن ألف رقيب ورقيب
حينما لم تُغلَق الدنيا لعشقي حيثما لم تُحجَب الأخرى لشوقي
كيف حُجِّبْتَ لحسي وخيالي وأنا الطائرُ في دنيا المحال؟
أترى أبدعتَ دنيا من خيالكْ ساكنًا فيها ضنينًا بجمالكْ
هـكذا الأربابُ عشاق الخفاءْ والـبـرايـا فـي دعـاءٍ وشـقـاءْ
فأجز لي لحظة أحيا بها كل نفس بضعة من ربها
أو فراقب مهجتي بين اشتعال وهي تفنى في تضاعيف الليالي!

في الواحة



في الواحة.

نـأتْ عن لـذة العمران حـتـى كأنَّ النُّسكَ تعشق والتخلِّي
ولم تعرف سوى الصحراء مأوًى تـفـرُّ إلـيـه مـن خـصـمٍ وخـلِّ

ولـكـنَّ الـحـيـاة أبـتْ عـلـيـهـا وَحـادَ الـعـيـش فـي مـوت وذلِّ
فـأطلعتِ العواطفَ في رُباها وأعـطـتـهـا الـتـأملَ والـتَّـمَـلِّـي
فصارت وهي في نسكٍ مقيم مـثـالًا لـلـتـبـتُّـل والـتـحـلـي
كما أخفى خفوقَ هواه شيخٌ يُـحـجِّـب لـوعـةَ الـحـبِّ الأَجَـلِّ
سما فيها النخيلُ بباسقات شـواعـرَ بـالـضـيـاءِ وبـالـتـعـلـي
نـوازعَ لـلـسـمـاء عـلـى صـلاة شـوامـخَ فـي شـعـور الـمـسـتـقـل
وكم حلَّ التناقضُ كلَّ شيء فـلـم نـعـدمْـه فـي أدنـى مـحـل
فما تلقى القنوعَ بها قنوعًا وإن فـتـشـتَ فـي فـرع وأصـل
وما هذي الرمال وقد تعالتْ بـأرفـعَ مـن وهـادٍ فـي تـدلـي
ولا العُشْبُ الموزَّعُ ثَمَّ يحيا ذلـيـلًا، بـل تـراه كـمـسـتـذل
ولا الـمـاءُ الـذي يـزجـيـه نَـبْـعٌ يـسـيـر بـغـيـر إحـسـاس ودلِّ
وما صُوَر الضياءِ وقد تناهت بـظـلٍّ، بـعـد ظِـلٍّ، بـعـد ظِـلِّ
بـأبـدعَ أو بـأكـمـلَ مِـنْ ظِـلالٍ لـلُـبٍّ ذاق مـن جـزءٍ وكـلِّ
وتـلـقـى لـلـصـلاة بـهـا تـجـلـتْ مـثـابـةَ شـيـخـهـا أبـهـى تـجَـلِّـي
فـجـمَّـلـهـا بـربـوتـهـا بـيـاضٌ وزيَّـنـهـا الـتـقـشُّـفُ والـتـملِّـي
وجلسة شيخها بالباب حينًا يـسـبِّـح فـي خـشـوع لـم يـمـل
لدنْ تلقى الصبا فيها طريحًا قـريـرًا أو بـتـحـنـان الـمـطـلِّ
حَوَتْ فيها العبادةُ كلَّ شيءٍ فـكـلٌّ فـي طـريـقـتـه يُـصَـلِّـي

الأوتار

سمعنا مِن الهربِ[٨] الذي هو قائلُهْ وما صـوتـهُ إلا خـيـالٌ نـسـائـلُـهْ
نظرنا إلى الحسْنِ المجرَّد قُرْبَهُ يـرَفُّ عـلـيـه نـورُهُ وأنـامـلـهْ
فلم نلم الدُّنيا على ما تسوءنا وشاقَ النُّهَى من عُمْرها ما تقاتلهْ

[٨] الهرب عن الأوروبيين: هو نظير الجنك عند الفرس.

تجسَّمَ فيه النُّورُ، والنُّورُ لم يكن يُجَسَّمُ يومًا أصلهُ وفصائلهْ
وكم عبدَ النُّورَ الزمانُ وسبُّحتْ بآلائه مِنْ كل عصرٍ أوائلهْ[9]
وخاطبتِ الأربابُ أرواحنا به ففيه لِسرِّ العبقريةِ نائلهْ
عشقنا به هذي الحياةَ ولم نكنْ لنعشقها لولا جمالٌ نغازلهْ
ونغرق في هذا الضياءِ هناءةً ونغرق يأسًا حين يُبْلَغُ ساحِلهْ
ولا تذبلُ الآمالُ ملءَ شعاعهِ وفي البُعْدِ عنه أنضرُ الأنس ذابلهْ
موائدُ للألبابِ حولَ ابتهاجهِ ومن دونها لن يشبعَ اللُّبَّ كافلهْ

* * *

سمعنا رضَى الأوتار والنورُ باسمٌ وفي نَبْضها مِن خَفْقِنا ما تماثلهْ
وما وَحْيُ «أفروديت» لمَّا تطلَّعتْ إلى الغَيْبِ إلَّا وَحْيُه ورسائلهْ
وما هذه الأوتارُ فاضتْ بلحنها مِن الدهر إلَّا بَحْرُهُ وجداولهْ
تَعاشقَ فيها النورُ والظلُّ فاغتدتْ وجودًا سَمَا فوق الوجود مُسائلهْ[10]

* * *

ترشَّفْتُ هذا الحسْن من كل نفحة حباني بها، والحسنُ شتَّى مَناهِلهْ
وأُسمعتُ باللحظ الأسير فنونَه ومِن مُتَعِ الإيهامِ كانت حبائلهْ
وذُوِّقْتُ موسيقى الخلودِ وإنْ تكن خيالًا، وفي جُودِ الخيال فضائلهْ!

اللهيب المقدس

قد رشفنا مُنَى الحياة بثغرٍ وارتوينا من اللهيبِ المقدَّسْ
تتلاقى الشفاهُ وهي ظماءٌ ثم تَظما على ارتواء وتنعسْ

[9] طلائعه ورواده.

[10] مناجيه.

وتـطـيـل الـلـقـاء وهـي سَـواهٍ　　عـن حـيـاةٍ بـوجـدِهـا تـتـنـفـسْ
مَن يلوم الأسيرَ إذ يغنم اللحــ　　ـظةَ للعيش حينما العيش أسلسْ؟
لـحـظـةٌ كـلـهـا جـنـونٌ، ولـكـن　　كم جنونٍ من الرجاحة أنفس!

* * *

قُـبـلاتٌ نـظـمـتُـهـا لـلأغـانـي　　رُبَّ سـحـرٍ لـسـحـرهـا يـتـلـمـسْ
لم أجد مسمعًا بها اليومَ أولى　　غيرَ سمع التي لها القلبُ ينبسْ
مِنْ جَنَى ثَغرِها قبَسْتُ نظيمي　　ومن النورِ مبدعُ اللحن يقبسْ
ربَّ شـدو بـهـا أطـال حـيـاتـي　　فحياتي من اللهيبِ المقدَّسْ!

وحي المساء

عودِي إلى ظِلِّ المسَاءِ فنلتقي　　روحيْن للدنيا بغير رقيبِ
إلَّا الـهـلالَ وأنـجـمًـا حنَّتْ لـه　　فتُخالُ بين حبيبةٍ وحبيبِ
تمشي على أرضٍ من الأحلام لم　　تُبْسَطْ لغيرِ الحُسْنِ والتشبيبِ
وتخصُّنا الأطيارُ والأشجارُ والـ　　أزهـارُ بـالـتـغـريـدِ والـتـطـيـيـبِ
فأبثكِ النَّجوَى مِن القلبِ الذي　　كالطفلِ لا يسلو مع التأنيبِ
ونـسـيـر لا نـدري إلامَ مَـسـيـرُنَـا　　ونـلـوح بـيـن غـريـبـةٍ وغـريـبِ
في حين نمتلك الوجودَ بأسرِهِ　　ونـود دونَ مُـسـائـلٍ وحـسـيـبِ

الأطياف

تـمرُّ أمـامـيَ الأطـيـافُ سَـكرَى　　وبـيـن جـموعِـهَـا مَـرَّ الـمـمـاتُ
فـحـنَّ إلـيـهِ قـلـبٌ لـي عـلـيـلٌ　　ولـكـنْ جـاذبـتْ قـلـبـي الـحـيَـاة
وقـالـت: إنْ عشـقتَ كما علمنا　　فـإنَّ الـمـوتَ يـأبـاه الـهُـواة
تـجـرَّعْ هَـجْـرَهَـا صـابًـا مُـسـاغًـا　　فـمـرُّ مَـذاقـهِ الـعـذب الـفـرات

وإنَّ الحبَّ سِحْرٌ عبقريٌّ وطوْعُ العبقريِّ المعجزات!
تمر أماميَ الأطيافُ لكنْ من الأطيافِ من غابوا وماتوا
وأخشى بينها طيفي فإني تحطمني الشجونُ العاصفات
وما معنى الحياة إذا تولت لهيكليَ الذي أحياه ذات؟
أصبِّرُ مهجتي وجراحُ نفسي بآلامي الدفينةِ هاتفات
وأصغي للحياة بلا شكاةٍ وكم للنفس في صمتي شكاة
وما شاقَ المماتُ القلبَ إلَّا وفي معناه دِينٌ أو صلاة
يجوع الشَّاعرُ الفنان حبًّا ويُسْقَى ما يمرٌّ ولا يقات
وبَعْدُ تُعنِّف الدُّنيا أساه وقد أشقاه بالوهم الأساة
وتضحك فتنتي وكأن حظي من الحسن القطيعة والشمات؟!
إذا غُبن الهوى فالصبرُ موتٌ وهل تنفي المماتَ الفلسفات؟!

اعتراف إبليس

جثا على ركبتيه عند خالقنا وقال: لستُ بمن يرجوك مغفرةً
فقد ألفتُ حياتي وانتهيتُ إلى ما رضتهُ من حياةٍ كلُّها هَوْلُ
لكنني ناشدٌ للحقِّ منزلةً وإن عددتَ حياتي وصمةَ الحقِّ
هذا اعترافي، ووزري لست أنكره فقد حييتُ دعيًّا أصغر الناسا
وقلتُ إني الذي علَّمتُهم حِيلي وهم تلاميذُ أهوائي وأحكامي
والآنَ أشهدُ أني كنت واحدَهم وبينهم مَنْ لهم حذقي وتعليمي
ولا أرى ليَ ذنبًا قد أسفتُ له غير انتقاصي الألى حذقي يدين لهمْ!

* * *

فلم يُجبه إلهُ الناس، واستمعتْ له الحياة استماعَ الأمِّ للولدِ
وهوَّنتْ عبئَه فالكلُّ قد نشأوا في حضنها ولو ان الكلَّ في حسدِ!

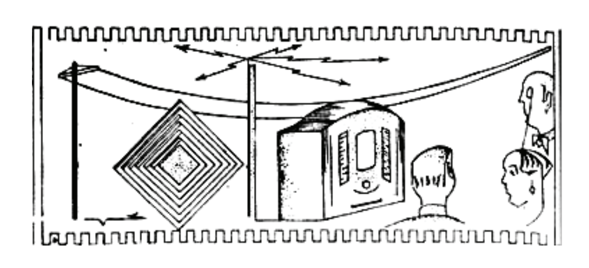
الألم الإلهي

حمَلتُ عن الناس أحزانَهمْ — وأشبعتُ نفْسيَ وجدانَهمْ
كـأنـي الـفـداءُ لأرواحـهـمْ — وأنِّـي ضـحـيـةُ تـبـريـحـهـمْ
فما قـنعتْ مرةً بـالـخـيالْ — مُنى مُهجةٍ تستطيب المحالْ
وتـأبـى إبـاءً حـيـاةَ الـقـيـودْ — وتُفتَنُ مِنْ كلِّ حُلم فريدْ
وتَـعـمـل لـلـمُـثُـلِ الـعـالـيـهْ — فتطعنها المُثُلُ الباليهْ
ويثأر منها الزمانُ الحقودْ — ويسخر منها ظلامُ الوجودْ
ولـكـنـهـا إذْ تـعـانـي الألـمْ — ترَى فيه معنًى يفوق الشمَّمْ
ومَـنْ يـتـمـرَّدْ عـلـى دهْـرِهِ — يَذقْ راضيًا منتهى شَرِّهِ
رسـالـةُ حَـيٍّ يُـريـدُ الـحـيـاهْ — سـمـوًّا تـنـاهـى إلـيـه الإلـهْ
وليست وجودًا قرينَ المماتْ — يصدُّ الجمالَ ويُبقي الرفاتْ
تَضمَّن قلبي جميعَ الوجودْ — وقـدَّسـه فـي شـعـور يـجـودْ
شـعـورٌ مـن الألـمِ الـدافـقِ — حَوَى لوعةَ الخَلْقِ والخالقِ

صائد النغم

هلمَّا صديقيَّ العزيزين واغنما — من الصفوِ ما يهواه مستمعانِ
ففـي كل شـبرٍ لـلهواءِ عواطفٌ — وفـي كلِّ خـفـقٍ لـلأثـيـر أغـانـي
تناجتْ بها الأربابُ من كل جانبٍ — ويـخـطـفـهـا الـعُـبَّـادُ وهـي دَوانِ
فتُغنم أعمارٌ من الأنس حولها — وتُـولـد أحـلامٌ لـهـم وأمـان
أدِرْها على سمعي كأني بسمعها — أذوق سَلافَ الـخـلـد بـيـن غـوان
سمَوْنا إلى الأرباب بالروح والمنى — ونـلـنـا مـن الأربـاب كـنـزَ مـعـان
وليست عصا موسى بأروع سِحرُها — من السحر في مفتاحها ببناني
تـطـاوعـنـي أسـرارُهـا وبـيـانُـهـا — وقـد شـمـلـتْ أسـرارَ كـل بـيـان
أجازت لنا التجوالَ في الأرض كلها — وفـي غيرها في لمح بضع ثوان

فما هذه الدنيا التي نحن أهلها سوى بعض دنيا سُخِّرتْ لجَنان
ولو أنَّ عصرَ المعجزاتِ التي خلتْ أُعـيـدَ لـدَانَ الـنـاسُ دون تـوانِ



صائد النغم.

هو العلم لم يترك مجالًا لجاحدٍ وسـابـق أجـيـالًا سـبـاقَ رهـان
فـفـاز بـمـجـدٍ لـلـنـبـوَّة شـامـلٍ وهـام بـشـأوٍ لـلأُلـوهـة دان!
ولـم يبقَ إلا أن يـحـاولَ مُبدعًا عوالمَ أخرى أو نـعـيـمَ جِـنـان!
وأن يصبح الإنسانُ ربًّا مهيمنًا على الروح يرضى أمرَه الحدثان!

الزائرة

أجـمـالُ الـوهـم أم مَـرآكِ أنـتِ؟ ورُؤَى الـدنـيـا أم الأخرى أبَنْتِ
قُبِرَ الـحـبُّ بصدري، وحياتي لـم تـكـن إلا مـمـاتًـا فـي مـمـاتِ
كيف حللتِ لـهـا هـذا الـنـشـورْ وأنا الأعشى فهل أغنَى بنورْ؟!
أنتِ يا معبودتي أنتِ أمامي؟ أكذا السحرُ بحبي وهيامي؟!
لا تزوري حينما روحي لديكِ تـتـلاشـى فـي أغـانـي شـفـتـيـكِ
لا تـردِّيـهـا إلـيَّ فـي رضـائـكْ إن حَرمتِ القلب عُمرًا من بقائكْ

نبئيني: هل هو البعثُ الأكيدْ   هل أرجِّي منك نورًا لن يبيدْ؟
أنتِ يا مَن صُغتِ أكوانًا عديدهْ   أتصدِّين مُنَى نفسٍ وحيدهْ؟
هل لها إلاكِ دينٌ أو وطنْ؟   أو لها إلاك ربٌّ يؤتمنْ
كلُّ ما أعطيتهِ حظٌّ مديدْ   كلُّ ما أغفلتهِ عُقبى الشريدْ
آهِ مما يدفن النسيانُ آه   بين آجالٍ تلاشت في تلاه
نبئيني يا حياتي: هل رجعت؟   أم أطلتِ النأي إذ لحتِ وبنتِ؟
رُبَّ وصلٍ هو هجرٌ في احتيالْ   رُبَّ صدق هو وهمٌ وخَيالْ
نبئيني واغفري صمتي الطويلْ   في سكون ملؤه الحلمُ الجميلْ
في ذهولٍ بين ألوان الجنونْ   أتملى النورَ والحسنَ الحنون
في عبادات تولَّتْ بي سراعَا   وسقتني خمرةَ الخلد ابتداعَا
وإذا الأطيافُ حولي راقصاتْ   وإذا الأربابُ بالخمرِ السُّقاةْ
وإذا النشوةُ تحدو بي للثمكْ   وإذا اليقظةُ تأبى غيرَ رسمكْ
نبئيني! هذه البسمةُ نمَّتْ   إنما نفسي بآمالي تغنتْ
وغناء النفس للحب طويلْ   ودموع النفس في سترٍ ظليلْ
فابسمي يا ربتي فالنور طبي   وانشري النورَ على دمعي وقلبي
واذكري لفظةَ عطفٍ تُغتنَمْ   تُرقص القلب على سحر النغمْ
كم تفانى راقصًا كالثمل   حين سُكر الهمِّ سكرُ الأمل
وله الآنَ حقوقٌ في حماك   لن يرى الحبُّ سواها وسواك
حدِّثيني عن أعاجيب الجمالْ   كيف يَطوي حينما يَبني المحالْ
كيف يرضانا رعاياه ويأبى   أن نُغَذَّى منه إلهامًا وحبا
هذه الوقفة طالت في خشوعْ   وفؤادي مثلُ عيني في دموعْ
وقفةٌ كانت سجودًا من شعوري   نظرة كانت خشوعًا في ضميري
لحظةٌ قد خلتُها العهدَ الطويلْ   زخرتْ بالمستعزِّ المستحيلْ
وبها الآمالُ تجري والشجونْ   في سباقٍ واصطدامٍ وجنونْ
وبها الألوانُ من أحلام شاعرْ   تتجلى بين مأسورٍ وآسرْ
وأنا العبدُ الذي ناجى الإلهْ   ورأى رؤيا عيانٍ منتهاه
ورأى ألفَ ذنوب وعذابْ   ورأى الغفرانَ مِن بعدِ الحسابْ

ورأى المعبدَ في رقعةِ أرضٍ ورأى الجنةَ في لمحة غمضٍ
ورأى الثأرَ من الدنيا يُنالْ ورأى الإحسان معنًى للجمال
فإذا لقياك يحدوها الوداعْ بسمةٌ مرَّتْ كخطفٍ مِن شعاعْ!

المعاني

وَهَبْتُ لكِ الفؤادَ فما لقلبي مَلاذٌ غيرُ حسنك أو أماني
إذا ما غِبتِ عني كان حالي كحالِ مشرَّدٍ في البؤس عان
وما لفتاتُ لحظي للغواني سوى لفتاتِ قلبي للمعاني
أحاول أن أرى فيهنَّ مغزَى جفائِكِ لي ومغزًى مِن حناني
فتضطرب المعاني في خيالي وتضطرم الأماني في جَناني
وأُحرقِ مهجتي الحيرَى صلاةً وقلبُك صادفٌ عني وهاني
وأرجع خائبًا من غير معنى سوى معنى التحرُّق والتفاني
تمرُّ مشاهدٌ للحسن حولي فيعشقها ويُطرِيها لساني
ويأباها فؤادي في جُموحٍ كأن رضاءَها بعضُ الهوانِ
ومَنْ عرفَ الغرامَ لديك ينسى معانيَ للغرامِ وللحسان

الجمال الموحد

روحُ الأنوثة والجمالِ تمثلتْ بك، ثم روحُ طفولتي وغرامي
ألقاكِ لقيا الخلد والدنيا معًا وأراك رُؤيا الحظِّ والأحلام
فإذا نأيتِ جعلتُ ألتمسُ الهوَى والحسْنَ بين مصادر الإلهام
فأعود محرومًا وإنْ حسبَ الورَى همِّي صفاءَ الشاعر المتسامي
وَحَّدْتُ فيك صبابتي وعبادَتي لمَّا جمَعْتِ مفاتنَ الأيامِ
وعجزتُ دونك أن أبلَّ تعطشي مِنْ كلِّ نبع للجمال أمامي

أنـا لا ألامُ بـحـيْـرَتـي وتـلـهُّـفـي   لمَّا نأيتِ، وكيفَ كيفَ مَلامي؟!
مَنْ كنْتِ أنتِ له الغِنى لم يُغنِه   عِـوضٌ مـن الإِحـسـان والإنـعـام

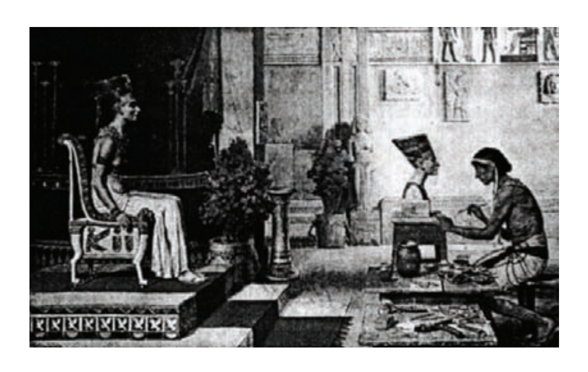
نعمة الحياة

ولو أنني لم أحْيَ إلَّا لكي أرَى   جمَالَكِ في هذا الوجود قريبَا
لَمَا كان عيشي غيرَ نعمةِ ظافرٍ   فكيف وقد بات الجمالُ حبيبَا؟
فلا تحرميني نعمتي وعبادتي   ببُعدِك في دنيا خَلقتِ جمالهَا
ولا تحسبي هذي المَرَائي كفيلةً   بأنسٍ إذا لم تمنحيها وصالهَا

المسحورة

الزنبقُ المسحور يرقب حسنها   ويـهـم يـلـثـم وجـهـهـا ويـثـورُ
فيصدُّه الطهرُ المعزُّ جمالها   والـنُّـور يـعـبـد نـورهـا ويـمـور
عرضتْ عليه فتونها في جلسةٍ   الـحـلـمُ فـيـهـا الـفـاتـح الـمـنـصـور
ونضتْ ثياب الناس حين دِثارها   مــهــجٌ وفــن رائــع وســرور
نامت كنوم الزهر وهو معطَّرٌ   والـجـوُّ مـن أنـفـاسـه مـغـمـور
وتـزاحـمـت لـلـذكـريـات أشـعَّـةٌ   والـذكـريـات جـمـيـلـهـا مـوفـور
نـامت عـلـى إلـهـامـهـا ونـعـيـمـهـا   ومـن الـتـخـيُّـل نـعـمـة وحـبـور
وقد احتواها الصَّمتُ في إيوانه   وكسا الجمالَ المستقلَّ النور
يـتـأمَّـل الـقـدرُ الـعـتـي بـهـاءَهـا   طربًا ويرعى الحسنَ وهو فخور
مـا كـان مـثَّـال يـقـدِّس فـنَّـه   بـأحـقَّ مـن وحـي لـه الـتـعـبـيـر
جُمع الجمال مع الجلال حيالها   فـتـشـرَّبْـتـه عـواطـفٌ وشـعـور
يـتـذوَّق الـفـنَّـانُ مـن تـكـويـنـهـا   وكـأنـه نـغـمٌ سَـرَى وعـبـيـر
ويحار في السِّحر الذي خضعتْ له   حـيـن الـوجـود إزاءَهـا مـسـحـور
وكذا الـحـيـاة عـزيـزهـا كـذلـيـلـهـا   ولـقـد يـسـاوي الآسـرَ الـمـأسـور!

نفرتيتي والمثال



نفرتيتي والمثَّال: «تمثل هذه الصورة الفنية المثَّال تحتمس وهو مكبٌّ على نحت تمثال للملكة نفرتيتي الجالسة أمامه في القصر الملكي بمدينة أخيتاتون Akhetaton «تل العمارنة» عاصمة المملكة المصرية في ذلك العهد، وقد تملكه حبُّها فجعله يتلكأ طويلًا في نحت التمثال، ثم أخذه إلى بيته وجعل من إحدى مقاصيره هيكل عبادة لهذا التمثال الذي مات صاحبه دون أن يتمه مفتونًا بروعتها وجمالها.»

سماءٌ لديْها يَعبقُ الحُبُّ والمُنَى   وفيها خيالُ العابدين تَناهَى
تَقمَّصَ فيها الفنُّ إحساسَ عاشقٍ   يمثِّل حسنًا بل يصوغ إلَهَا!
تملَّكه الرَّوعُ العظيم فإنَّه   يترجم عن روح الحياة مَداها!
فيرفع لحظًا ما تعوَّدَ رفعَه   إلى من أذلت بالجمال جباها
هو الفنُّ سُلطانٌ على كلِّ دولةٍ   يُبدِّل من ضعف النفوس قواها
ويُكسِبها مِنْ بَعد فقرٍ لها غِنًى   وأيُّ غنًى لولاه بَزَّ غناها
تأمَّلْهُ بين الحبِّ والفنِّ مُبدِعًا   له جُرأة في خشيةٍ تتلاهى
وهاتيكَ بنتُ الشمس في عرشِها استوَتْ   وحسبك مِنْ روع الشموس سناها
تجلَّتْ لنا في عِزَّةٍ حينما بدتْ   له مَثلًا أعلى وليس سواها
ففي كلِّ مَرْأًى حولها عالمٌ له   يفيض بإحساسٍ وُيشرق جاها!

وما فاحَ عِطرٌ للبنفسجِ قُربَها   كعطرٍ ومعنى للملاحةِ فاها!
تحدّثَ منها كلُّ لونٍ ونشوةٍ   حديثَ فتون للنفوس كفاها
وتَلْقَى تهاويلَ الجمالِ حِيالها   رهينة تقديس تؤله فاها!
فيا غِبطَةَ الفنانِ والدَّهرُ حاسِدٌ   روائعَه والفنُّ بات رضاها
تُطاوعُهُ في جِلْسَةِ الصَّمْتِ لذَّةً   ويُفصح هذا الصمتُ فوق لغاها
وَيجْبُلُ للتمثالِ حُسنًا، وعندَهُ   تَفَنُّنُهُ عجزٌ وليس مُناها!
وقد تَخْجَلُ الأصباغُ في ريشةٍ له   مِن الوصف عما شاقه وحكاها!
فيَبقَى مَدَى الساعاتِ في اليأسِ والمُنَى   وينشَقُ ما شاء الزمانُ شذاها
ويَخبأ في البيتِ المقدَّسِ مَعبدًا   مَفاتنها: تمثالها وحُلاها!
فيُنْصِفُهُ حتى الزَّمانُ بحرصهِ   قرونًا على إبداعه وهواها
ولم يَكمُلِ التمثالُ، والفنُّ صافِحٌ   فمن ذا الذي صاغ الجمال إلـها؟!

شراب الفنان

جاءت متوَّجةً تألَّهَ دُرُّهَا   في ثورةٍ وَيَحُفُّهَا الإزبادُ
فكأنما سالتْ بخفق جوانح   وبكل خافقةٍ[11] هوًى وفؤاد
ويذوب مثلَ الحظ تاجُ سنائها   إنْ سوَّف العشاقُ والعُبَّاد
صُبَّتْ من الدنِّ الطهور وعمرها   حَدَثٌ، ويخطئ عمرَها الميلاد
وتوهجت بالحبِّ في زهو الهوى   وصفت وملءَ صفائها الأعياد
قُطِفتْ من الأفلاك في عيدٍ لها   فتبسمت وتبسم الأنداد
شربوا على نخب الولاءِ لأهلها[12]   فأضاء فيها الكوكبُ الوقَّاد
ليست مُذابًا للشعير وإنما   في طيها اللذات والآباد
أَرغت كعابسة الغيوم هنيهة   ثم استتبَّ لها هوًى ومراد

[11] يشير إلى حيها.
[12] الأفلاك.

فـإذا الـحـيـاةُ لآلـيءٌ فـي تـاجـهـا — نـشـتـاقـهـا، وإذا الـمـمـات بـعـاد
هاتِ اسقني هذي الحياةَ بما وعتْ — أيـكـون مِـن دون الـحـيـاة مَـعـاد؟
أو هـاتـهـا أخـرى تـجـدِّد نـعـمـتـي — فـيـكـرَّر الإحـسـان والإيـجـاد
مـا الـعـمـرُ إلا مـا تـذوَّقـه الـفـتـى — إن الـحـيـاة مـرارة وشـهـاد
فـإذا شـربـتَ فـأنـت خـالـقُ مـا تـرى — ويـعـيـش مـلءَ شـرابـك الأجـداد
عـيـشٌ يـبـاركـه الـزمـانُ ومـا لـه — حَـدٌّ، ومـا يَـهـوِي إلـيـه حـداد
هـذا هـو الـطـربُ الـشـهـيُّ، وربُّـه — ربٌّ تُـبـدَّد دُونَـه الأحـقـاد
ويُـصـفِّـق الـفـنُّ الـقـريـرُ بـروحـه — ويـرقُّ مـنـه شـرابُـه ويُـعـاد

غذاء الآلهة

خطفته مِن زهر الجنان وأقبلتْ — كـالـحـورِ رشَّ ثـيـابَـهـا الـنُّـوَّارُ
وتـعـطـرت بـنـوافـح عـلـويـةٍ — جـادت بـهـا الأمـلاكُ والأقـمـار
صُبَّتْ على الأزهار في أضوائها — ونـمـت بـطـهـر غـذائـهـا الأزهـار
خـطـفـتـه عـاجـلـةً كـأن حـيـاتـهـا — هـذا الـرحـيـقُ فـهـانـت الأخـطـار
ومضت به والجوُّ مضطرب الذُّرَى — ومـن الأشـعـة جـحـفـلٌ جـرار
والشمس تحسدها وقد حملت غنًى — هـو لـلـحـيـاة تـحـيـة وشـعـار
خاضت به بحرَ الأثير وأقبلتْ — بالكنز يحرس سعيَها المقدار
وتلقَّفتها الصاحباتُ وأسرعت — فـإذا الـخـلـيـة روضـةٌ مـعـطـار
قد بارك الأربابُ ما ذخرت بها — واسـتـمـرءوا هـذا الـغـذاءَ وطـاروا
خـفـتْ بـه أرواحُـهـم فـكـأنـهـم — فـي الـحـلـم مـا تـتـخـيـل الأشـعـار
وكـأن هـذي الـنـحـلَ آلـهـةٌ فـمـا — تـرضـى سـوى مـا تـلـهـم الأقـدار
عاشت بإكسير الحياة وعمرت — أقـراصَـهـا الأسـحـار والأنـوار
يترقرق الشهدُ الجميل بها كما — في الفجر يبتسم الهوى السحَّار
مَنْ لم يَذُقْ هذا الشهادَ فما له — فـي الـخـالـديـن مـكـانـةٌ ومـنـارُ
حرصت عليه فجنَّدت ما جنَّدت — وهـفـت لـه الأسـمـاءُ والأبـصـار

واستوثقتْ منه بختم بيوته وكأنه الأسرارُ والأعمار
وغدت تُرتِّل حوله صلواتها ويُخال ملءَ صلاتها المزمار
فخشعتُ في حُبِّي لها، وكأنني منها، فقد تتحوَّل الآثار!

ممات الحب

إن كنتِ آثرتِ حرماني الهوى الآسي فأين أين ضراعاتي وأنفاسي؟
أين اللهيبُ الذي أحرزتهِ قبسًا من شُعلة الحب: من قلبي وإحساسي؟
أين المعاني التي أرسلتِها قبلًا إليك ساخرةً من أعين الناس؟
أين الجمال فنونُ الشعر أعصرها من مهجتي لك قبل الراح في الكاس؟
رُدِّي إليَّ ديونًا قبل أن تضعي حكم الفناءِ وترضي خطةَ الناسي
رُدِّي قليلًا وقُصِّي مصرعي صُوَرًا مِن الوداع بسمع الورد والآس
وعذبيني لقاءً كله شغفٌ وقطعيني وصالًا كله قاسي
حتى أموت قريرًا موت فائرةٍ[١٣] تفجرتْ بيدٍ كانت يد الآسي
هذا هو الموتُ أحلى ما يكون هوًى بئس المماتُ بكأسٍ من يد الياس

وصف

ناشدتِ وَصْفَكِ حين وصْفُكِ نامِ في هذه الخطراتِ والأنغامِ
تتأمَّل الأحلامُ في عينيْك ما يتأمَّل الهاوي ويهوَى الظامي
دُنيا من النِّعَمِ التي ما حَدَّها حَدٌّ من الأحزان والآلامِ
عُودي إلى رقص الشبابِ بخفةٍ من كل فتَّانٍ ومن بسَّامِ
وتَفنَّني بالوضعِ في صُوَرٍ لها صُوَرٌ من الإِنعام والإلهامِ

---

١٣ عين متفجرة.

وتدفَّقي نغمًا يسيل مع المُنى
كمسيل رقصك في خلال ظلامِ
صوتٌ تحنُّ له ملائكة السما
ويُبَثُّ في النُّورِ الطروبِ أمامي
غَنِّي وغَنِّي، وارقصي وتبسَّمي
وتفنَّني للحبِّ والأحلامِ
أنتِ المؤمَّرةُ العزيزةُ دائمًا
فالفنُّ مخلوقٌ لعيش دوامِ
تتجمَّع اللَّذَّاتُ حولك مَعرضًا
كتجمُّع الأشواق للأيتامِ!
وتدور حولكِ للخيال سوابحٌ
سبحَ العواطف حول شمس غرامي!
لا عاش مَنْ لم يغتنم بك لذةً
من هذه الألوان للأيامِ!
قطفتْ لوجداني الحزينِ صبابتي
منها الشفاءَ وللفؤادِ الدامي
وأخذت أنظر ثم أنظر ناهلًا
عذبَ الدواء لجرحيَ الملتام
حتى شُفيتُ، فكان وصفُك هكذا
دَيْنًا عليَّ، فهل رَضِيتِ هيامي؟

ذكرى سيد درويش «لمناسبة مرور خمس سنوات على وفاته»

تَبَسَّمْ! فهذي نفْحةٌ منكَ طالمَا
تبسَّمْتهَا لحْنًا فطابَ غناءَ!
تَبَسَّمْ برغم المَوْتِ فالموتُ صورةٌ
من العيشِ تُسْتَوْحَى، وليس فناءَ
مَضَتْ هذه الخمْسُ السِّنونُ ولم نَزلْ
حَيَارى وحَارَ المبدعون سواءَ
أقلِّبُ طرفي فيكَ والرَّسْمُ مُفْصحٌ
ظريفٌ يُحيِّي الشِّعْرَ والشعراءَ!
فأذكرُ بُؤسًا للنُّبوغ بأمَّةٍ
أحقُّ بها أن لا ترى البُؤَسَاءَ
وَهَبْتَ لها إبداعَكَ الحرَّ زاخرًا
ومُتَّ فما جازتْ نَداك نِدَاءَ
أتهتفُ بالأسماءِ من كل بقعةٍ
وتنسَى هزار «النيل» حين تناءَى؟
كأنَّك ما غنَّيْتَ فيها ولم تَصُغْ
لها مُعجزاتِ العازفين هناءَ!
وبالأمْسِ كم عُوديتَ مِنْ كلِّ مُدَّعٍ
فعادى مُناها مَنْ رَماكَ عداءَ
يَظلُّ رجالُ «الفنِّ» بَعْدَكَ هكذا
يودُّون عَهْدًا كنتَ فيه رجاءَ
يَئنُّون في ألحانِهمْ مِنْ تَذَكُّرٍ
فكلُّ أنينٍ بات فيكَ رثاءَ!
على أنني لو كنتُ خَيْرَ مُلحِّنٍ
وكنتُ المجلَّى روْعَةً ورُواءَ
لأنْطقْتُ مِنْ قيثارةِ الفنِّ آيةً
أجلَّ تزيد «الدَّهرَ» فيكَ بُكاءَ!
وأرسلْتُهَا ثأرَ النُّبوغِ ببيئةٍ
يُلاقِي بها شرَّ العُقوقِ جزاءَ!



الفن الشهيد

الذكرى التاسعة للمرحوم الشيخ سيد درويش، ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٢:

ذكرى تَجلُّ على مَدَى الأعوام　　كالفنِّ في ملكوتِهِ المترامي
طبعَتْ مَآثرها بأحلام النُّهى　　وزَهتْ على الأشعار والأنغام
مِنْ أيِّ نبعٍ أو بأيَّةِ آيةٍ　　لسواه يُحْمَد ذلك المتسامي؟
الميِّتُ الحيُّ الذي مِنْ وحْيِهِ　　لغة القلوب ونشوةُ الأحلام

«السيِّدُ» الغردُ الصَّناع بنفسِه — والخالق المعصوم من إبهام
الضاحك الباكي بكلِّ يتيمةٍ — وُلِدَتْ من الأتراح والآلام
خَلدتْ وإن أفنتْ أبُوَّتها كما — يُفْنى الضياءُ مسارح الإظلام
مصريَّةُ النفحاتِ إلا أنها — كالنفس أخلدُ من لُغًى وكلام
وَطن البلابل والأزاهر زفه — للفنِّ بين كواكبِ الأعلام
المحسنين إلى الحياةِ بروحهمْ — كالأنبياءِ تَقدَّسوا عن ذام
الفنُّ طهرهم كما قد طهَّروا — صُوَرَ الوجود بنغمةٍ وسَلام
ولو انَّ منهم منْ تَذوَّق عُمرَهُ — سُوءَ الجزاءِ مرارةَ الظلَّام
الهادمين العبقريةَ حينما — لا يهدمون مصائبَ الأيام
دنيا أعاجيبٍ يحار لها الحِجَى — وتغيبُ حكمتُها عن الأحلام
حتى كأن العيشَ ليس سِوَى الرَّدَى — وكأنَّ هذا الموتَ عُمرُ دوام

***

اليومُ يومُك يا شهيدَ غرامِ — يا بائعَ الإبداعِ بالأسقام
يا واحدًا في روض مصر تطلعتْ — شتَّى الرياضِ له وللإلهام
أوحيتَ ذكركَ لي ولحنُك مالئٌ — لُبِّي ورقصُ الفاتناتِ أمامي
العارضاتِ جمالهنَّ قصائدًا — للحُبِّ في صَدٍّ وفي استسلام
والنابضات بكلِّ ألحان الرِّضى — والحظ بين تهافت اللُّوَّام
شِعرُ الحياة ووقعُها ما أبدعَتْ — هذي النماذجُ مِنْ جمالٍ سام
ما كنَّ أجملَ لي من الرسم الذي — لكَ في عواطف وجهكَ البسام
الساخر الهازي مِن الدنيا التي — خذلتْه بين مَظاهر الإنعام
حتى انتهى ومضى بحسرة يائسٍ — جَمِّ الغنى عن دهره المتعامي
والناسُ في جهلٍ بآية فنِّه — والآنَ كلٌّ في التَّحَسُّر ظامي
ويُرَتِّلون لك الرثاءَ ولم تزلْ — أنتَ الغنِيَّ عن البكاءِ الهامي
ما أصْغَر الدنيا التي تُفني العُلى — وتعودُ تبكيها بقلبٍ دامي

الجحود

وكم مُغْرقٍ خَصَّني بالمديح تخيَّلْتُهُ مثلَ هاجٍ يُغالي
أقضِّي الحياةَ على غصةٍ وأُسْقَى الهمومَ على أيِّ حال
ومَنْ لم يُطِقْ أن يبلَّ الصَّدَى فهيهاتَ يُغْنَى بنهرٍ زلال
مَرضتُ وقد بخلوا بالدواءِ وجادوا بأوسمةٍ للمعالي
وماذا انتفاعي بأمداحهمْ إذا مُتُّ مِنْ حُرقةٍ واشتعال؟!
أضعتُ السنينَ لهم رائدًا وما نَدَمي للسنين الخوالي
ولكنْ شُجوني على حالةٍ يُسامُ بها الحرُّ خسفَ الضَّلال
ويلقى الجحودَ جزاءً له جحودَ الفعال وبر المقال!
فيا مادحي لا تكن مسرفًا فرُبَّ مديحٍ كرشق النبال
ورفقًا بقلبٍ بَرَتْهُ الهمومُ وما زال في خفقه لا يبالي
يكافح حتى الشعاع الأخير ويُخذَلُ ما بين صحب وآل
ولو أنهم قدَروا نُبلَه وصانوهُ مما جنتْه الليالي
وأحْيَوهُ مِنْ بُؤسهِ وهو قبرٌ ومِنْ شقوةٍ فوق كلِّ احتمال
لألبسَهم مِنْ معاني الفتونِ وخلَّدهم في بيوت الجمال

صائد الخيال

وقفتُ على ضفافِ اليمِّ أُلقي شباكي طالبًا أقصى المحال
وما بحرُ الحياة بمستعزٍّ على من كان صيَّادَ الخيال
فما لي قد عثرتُ وضِعتِ منِّي وخانتني الشباكُ وساء حالي؟
فهل دنيا الخيال تهون صيدًا وليس بهيِّنٍ صيدُ الجمال؟!

الماضي

ودَّعتُ من قلبي الوفيِّ حبيبي ومِن الوداع حلاوةُ التعذيب
سأعيش للماضي العزيز فإنما أودعتُ في الماضي أعزَّ حبيب
ما كان عيشي الآنَ أو هو في غدٍ إلا من التشريد والتغريب
تزكو القلوبُ بنفحة لروائها وتجفُّ إن حُرمتْ حنانَ قلوب

عاصفة الربيع

ضنَّتِ الشمسُ بألوانِ الربيع أم كبا النورُ كحظي بدموعي؟
عصفَ الجوُّ بلفحٍ من ضرامٍ وعَجاجٍ كشقائي في غرامي
أتراه من زفيرٍ وأنينْ سوف يمضي كعذابِ العاشقينْ
ويعود الجوُّ أصفى ما يكونْ كصفاءِ الحبِّ مِنْ بعد الجنونْ؟!
ضنَّتِ الشمسُ وكم ضنَّت وضنَّتْ حينما أنفاسِيَ الحيْرَى تمنَّتْ
ضنَّتِ الشمسُ وكم للشمس بخل بينما يستبعد الحِرمانَ عقل
وكذاك الحسن في البخل عجيبْ حينما الحسن غذاءٌ للقلوبْ
مَن ترى يرعى هواها ومُناها وهي تفنى في تناسِي مَن براها؟!
أكذا في النور يغشانا الظلامْ ونعاني في حِمى الطبِّ السِّقامْ
أيُّ معنًى لربيعٍ فيه نشقى ونذوق الحبَّ إرهاقًا ورقًّا؟
يا حياتي كيف ترضين البعادْ في أوانِ الحبِّ حتى للجمادْ؟!
أعرفتِ الهجرَ مِنْ هذي «الطبيعهْ» أم تلقَّتْ عنك ما أضحت مُذيعهْ؟!
ابسمي يا ربَّتي يبسم وجودْ كلُّ ما فيه جحودٌ في جحودْ
ما زفيرُ النار في هذي الجِنانْ وبها الإحسانُ مِنْ طبع الحسانْ؟!
إنها سخرٌ من الدنيا بقَلبي بعد ما عذَّبتِهِ من أجلِ حُبِّي
أقبلي فالطيرُ نادى إلفه ثم ألقى كلُّ عانٍ خوفَه
وتخلَّى عن مآسيه اليتيمْ وتبنَّاه ضياءٌ ونسيمْ

واستعدَّ الكونُ للعرسِ الجديدْ   فإذا بالعرسِ مأساةُ الوحيدْ
آهِ مما يَصدع المهجورَ آهِ   بينما الدَّهرُ بسخرٍ متناهِ
فيلاقي الصيفَ إبَّانَ الربيعْ   ويُعادَى حينما عزَّ الشفيعْ
وإذا الإِعصارُ أدنى ما يلاقي   وإذا الإِظلامُ عنوان الفراقِ!

صوت الشهب

حُرِمْنَا من العيشِ الهوى والأمانيا   كأنْ لم يكن فرطُ الفجيعةِ كافيا!
ومَنْ يكرعِ الأحزان لا يرتوي بها   ولم أرَ مثل الدهر بالحزن ساقيا
وما بسمتي والوجدُ ثاوٍ بمهجتي   سوى بسمة النيرانِ تُشعل داجيا
فيا نفسُ عيشي لاحتراق مجدَّدٍ   ولا ترقبي إلا التألُّم صافيا
ولا تأملي إلا الدخانَ مُصافيًا   ولا تحسبي غيرَ اشتعالك آسيا
ومَنْ ينشدِ الحبَّ الذي ما له مدَى   يمتْ كممات الشهب حيرانَ هاويا
بذا قضت الأحداثُ في كل عالمٍ   وما شذَّتِ الدُّنيا لمن طار عاليَا

نفسي

أجوب بنفسي باحثًا وكأنني   بكونٍ يحار البحث فيه بل العقل
يَتيه بصيرٌ في مَداه وأحمقٌ   كما يتساوى عنده العلم والجهل
جبالٌ وأبحارٌ ودنيا عريضة   ضللتُ بها في حين أحجى الورى ضلوا
ففيها الصحاري والمجاهل مثلما   بها من فراديس المحبة ما يحلو
عَييتُ بكشفي عن مَداها وسرِّها   وحالي كحال الرائد الحرِّ لا يألو
ومَن كان في تيهٍ بعالم نفسهِ   أيبلغ سرَّ الكون وهو هو الأصل؟

شتاء الحياة

تشجَّعْ أيها القلبُ المعنَّى فقد بات الشتاءُ دُجَى يَطولُ
تحفُّ بكَ العواصفُ وهي ثكلى ويفجعك التناوُحُ والعويل
تنوح على الفصولِ وقد توارتْ بآلاءٍ لها تلك الفصول
كذلك أنت يا قلبي بعصفٍ تزول الحادثاتُ ولا يزول
ومَنْ طُبِعَ الشَّجا فيه انطباعًا أيَغْسِلُه الترنُّم والهديلُ؟
وقد غمر الأسى شتَّى المجالي فغابَ البشْرُ والطبع الصقيل
كما هوتِ الثلوجُ على مُروج فكُفِّنتِ الحُزونةُ والسُّهول
تشيم بها الحياةَ ولا حياةٌ وتَلْقَى الدُّرَّ غايتهُ الوحول
كأن الأرضَ عمَّرها نفاقٌ وأفسدَ نورَها نورٌ دخيل
تشجَّعْ واحتملْ يا قلب فردًا فليس يدوم للعاني خليل
وليس بمخضعٍ للدَّهرِ حصنًا سوى مَنْ لم يَرُعْهُ المستحيل

عبث الدنيا

للشعر وحيٌ لا يَجِنُّ لعالِمِ إلا إذا لاقاه بين عوالمِ
وحقائقُ الدنيا المجرَّدةُ الأسى ومغارمٌ موصولةٌ بمغارمِ
مهما كساها الشعرُ حليةَ فنه فالقبحُ سوف يُطلُّ بين مباسمِ
دُنياكَ يا خِلِّي مسارحُ نضرةٍ لكنها سُكنتْ بهمٍّ دائمِ
أنا لا ألوم سخاءَها لمنغِّصٍ أفراحَها ووفاءَها للنائمِ
طَبعُ الغواني اللاهياتِ طباعُها الماشياتِ على بساط جماجمِ
يجمعن بين مَفاتن ومصائب ويسرنَ بين أزاهر وأراقمِ
لم يبق للحرِّ النزيه حيالها إلا التدرُّعَ بالثبات العاصمِ
الحرُّ يأبى الظلمَ من أربابه ولنفسه تلقاه أقسى ظالمِ
عش بالكفاف إذا استطعتَ محرَّرًا عن زهو عيشٍ في إسارٍ هازمِ

الإقدام

إلى الصديق الدكتور محمد شرف بك لمناسبة مثول الطبعة الثانية من معجمه الطبي العلمي الشهير للنشر:

أعدْتَ جميل الطبع في طبعةٍ حوتْ ... من العلم ما يُثني عليه قصيدُ
وما «المعجمُ» الحالي الذي عاد باسمًا ... سوى نور عيدٍ حين يشرق عيدُ
تلفتتِ الآدابُ والعلمُ والنهى ... إليه، وحيًّا بهجتيْه نشيدُ
حوى بهجة الإتقان في كل صفحةٍ ... ففي كل وجهٍ للبيان نضيد
وحاز له مِنْ ثروة الفكر بهجةً ... ونزهة من يلقاه وهو عميد[١٤]
ألا في سبيل النفع ما قد بذلْتَه ... وللمجد هذا الفضل كان يشيد
فأنفقتَ عُمرًا دائبًا في تفرُّدٍ ... لتُغنِي، فتمَّ الكنز وهو فريد!
بعثت ألوفًا منْ معانٍ دقيقةٍ ... يُزاد على نبراسها وتزيد
وكنت فتى الإقدام رغم مصاعبٍ ... تردُّ نشيط العزم وهو بليد!
سنونٌ توالتْ في هُموم أثيمةٍ ... وأنت صبور جاهد ورشيد
تفتش عن لفظٍ مئات صحائف ... كما فتش الغواصُ وهو وحيد!
وتنفق مالًا دون عدٍّ محققًا ... وتنسى الذي أنفقت وهو عديد!
وتقضي الليالي ساهرَ الطرْفِ عانيًا ... إذا بات يلهو غافل ووليد
وتمضي ارتحالًا دون نسيان واجب ... وكم في الصحاري للجهود شهيد![١٥]
وتنفض أجواز الفلاةِ ولم يكن ... يصدك بأس القيظ وهو شديد
فضيَّعت عُمْرًا للمعارف والورى ... وما ضاع عمر في الصلاح أكيد
غنمت بما أنفقت عُمرًا مخلد ... وإن قيل حظ النابغين شريد!

* * *

[١٤] العميد: الكئيب الحائر؛ إشارة إلى حزن من لم يهتد إلى ضالته في غيره من المعاجم فأنقذه هذا المعجم المسعف من حيرته وكآبته.
[١٥] بمعنى شاهد.

فيا «شرفٌ» يكفيك أنك موجدٌ حياةً يراها مائلٌ وبعيد
بل انتعشت «للضاد» في عالم لها كرامةُ علمٍ، بل وعاد فقيد
وعيدت الفصحى لأجلك مثلما تسامى لها صوت كذاك جديد
فإن لم تنل في «مصر» قدرًا مبجَّلا فكم هان فيها نابغ ومجيد!
وما زال فيها للأصاغر دولة وكم مات تحت الأدعياءِ شهيد!
فحسبك مجدٌ لن يموت وهمة تفلُّ صعاب البحث وهي حديد!
وحسبك ذخرًا لذة العلم وحده ومن نال هذا العلم فهو سعيد
وحسبك ميتًا في الورى ألف حاسد يعضُّ بنان العجز حين يجيد!
ألستَ الذي ألفت ما لم تَقُمْ به محافي[١٦] بلاد جهدهن جهيد؟
ففي ذمة التاريخ إقدامك الذي يتابعه الروَّاد وهو تليد
وللفن والعلم الشريف تحيتي وما الشعر في هذا الجلال زهيد
دوافعُ توحي الشعر غيرَ مسخَّرٍ وما كلُّ شعر الحامدين حميد
ويا ليته كان الوسامَ الذي له كفاءُ غنًى أسديتَ وهو سديد

التاج

عبث الذين بنوا لمصر رجاءها برجائها في شهوة الأحقادِ
كلٌّ يرى العارَ الشنيع لندِّه وكأنهم ليسوا من الأنداد
يتقاتلون ومصر ترزح تحتهم وتداس بالأقدام بين عَواد
ولو انهم عرفوا الحقوق لأنصفوا إن العناد مولِّدٌ لعناد
اليأسُ يملأ مهجتي في حسرة وأعبّ منه كما يعبُّ الصادي
تجري السنونُ ونحن نصغر إثرها وكأننا نفنى فناءَ جماد
لم يبقَ ملتجأٌ يطاف بصرحه إلا حمى الملك العظيم «فؤادِ»
فالملك عبءٌ للهموم، وتاجُه أَلَقٌ يُلاذُ به وليس يعادي

---

[١٦] المحافي «ومفردها المحفى» هي المجامع العلمية أو الأكاديميات.

الوهم العميم

غُذِينا بالتفاؤل فابتُلينا بسوءِ الهضم والطبع السقيمِ
فوا أسفى على خِدَعٍ توالت يهيِّئها الحميمُ إلى الحميم
ووا لهفي على زمنٍ لبثنا نضيعه على الوَهْم العميم!
ويبهجنا ارتشافُ السمِّ حلوًا وليس مرارة الطب الحكيمِ
علام تفاؤلُ الأعلام فينا ونحن من العديم إلى العديم؟
ولو شاء المنجِّم أن يرانا لحار من التوسُّلِ بالنجوم
ونحلم بالنزاع ونشتهيه كأن الخلفَ من خلق الكريم
ويُرجَمُ بيننا الرجل المضحِّي ويُرْفَع فوقنا الرجل البهيمي
كأن مبادئ الإعزاز حالت وبات المجدُ وقفًا للئيمِ
وصار المحسنون يُراع منهم ويُخشَى الفضلُ كالذنب العظيم!

الوصايا المنبوذة

لم تَبْقَ مِنْ «سعدٍ» لمصر وَصِيَّةٌ إلَّا تهاونَّا بحقِّ بقائِها
العامُ مَرَّ، فمرَّ بعد وَفاته حُلْوُ الإخاءِ لمصر في أبنائها
أسفي على الأعذار وهي كثيرة جَعَلتْ مَواطِنَ دائِها بدوائِها
تُهَمٌ تُكالُ بلا حسابٍ مُقْنعٍ للساكنين الخلدَ من شهدائها
كلٌّ يبالغ في العداءِ لِندِّه ماذا ترَى تركوا لدَى أعدائها؟!
كلٌّ يفاخر بالشتائم عُدَّةً ويلوم حين يلجُّ في غلوائها!
لو صَحَّ هذا الاتِّهامُ لقوَّضَتْ هذي المصائبُ من شموخ رجائها
أسَفي على روح التحزُّب إنْ قضتْ بالطعن في الأخيار من عظمائها
ما النفعُ مِنْ هذا الغلوِّ بكيدكم ما دام يعني الرُّزءَ في أحيائها؟
إنَّا ليُعوِزنا هُدى قوميةٍ في سعينا الأوْفَى إلى إعلائها
إنَّا لأحْوجُ من دخيل غالبٍ لنبالة الأحكام في إرضائِها

وأرى المحالَ النصْرَ بين تفرُّق — وتنابذٍ مُفْضٍ إلى ضرَّائِها
فإذا حسبتمْ في الخلاف سياسةً — فأرى الوفاقَ معزِّزًا لمضائِها
وإذا ظننتمْ في التحزُّب حكمة — فأرى التوحُّدَ منعةً لبنائِها
مَن عاش عيشةَ نفسِهِ أو حزبه — في أمة فلقد يعيش كدائِها
والحبُّ أنفذُ مِن عنادٍ باطل — بأسًا، وأشرفُ غايةً لندائِها

الشعراء شيء والعالم شيء آخر

١

قالوا: نأيتَ عن الجمال الضاحي — وهجرتَ صورته إلى الأشباحِ
قلت: اطمئنوا فالحياة ذميمة — لولا بقيةُ سلوة في الرَّاح
الكأس أطهر من سريرة كاذب — وأعفُّ من متملقٍ ووقاح
ما عابني إلا سلامة نيتي — وترفُّعي عن أخبث الأرواح
إني خلقت من الدموع فلا أرى — إلا جمالَ مدامعي ونواحي
أقسمت بالورد الذي أصبو إلى — أنواره وأريجه الفوَّاح
وبشعر «أحمد» أنني لا أتقي — في الورد غير الشوك شر سلاح
خيرٌ لمثلي أن يموت تعفُّفًا — عن ماء قوم لم يكن بقراح!

* * *

قل للطبيب الفيلسوف: ألا ترى — رأيي فإنك حجة الإصلاح؟
أوَلم يقل بالأمس قولةَ نابهٍ — نمشي بنور ذكائه الوضاح:
«والسيدُ الربانُ يبلغ شطه — فينام نوم الظافر الملاح»
«يُغفي فيحسده دعيٌّ لم ينم — والنومُ رمزُ تغلب الطماح»[17]

[17] هذان البيتان من رثاء صاحب الديوان للمغفور له سعد زغلول باشا.

هـذا وربِّـك بـعـض مـا أدركـتُـه بـيـن الـرفـاق وأنـت أعـدل صـاح
كم طرت بين صحابتي وعشيرتي في العالمين وكنتَ أنت جناحي
أعـزِزْ عـلـيَّ بـأن أراك مـعـاتـبًـا فـي عـتـبـه مـقـةٌ وبـعـضُ تـلاح
لك مـا تـشـاء من الـعـتـاب وإنـمـا أرجـوك ألّا تـنـبـشـنَّ جـراحـي!

* * *

يـا سـيـد الـشـعـراء فـي تـجـديـده وأخـا الـبـيـان وحـجـةَ الإفـصـاح
مُرْ ذلك «الشفقَ» الذي أطلعته أن «يبكينَّ» لليلتي وصباحي
فـحـجـاك مـوفـور وقـولـك حـجـة ورحيق شعرك نشوة للصاحي
والعطفُ كل الشعر فابعث وحيَه في الروض بين قرنفل وأقاحي

محمد فضل إسماعيل

٢

هَوِّنْ عليكَ فما عتبتُ مخاصمًا ومن الـعـتـابِ مدامـتـي ومـزاحـي!
واشـربْ كـئـوسَ الـرَّاح غـيـر مـذمَّـمٍ فـلـرُبَّ شـعـرٍ فـيـه لـطـفُ الـراح
لكَ مـا تـشـاءُ مـن الـوجـود وأنـسـه واتـرك حـديـثَ مـدامـعٍ ونـواح
ما صوَّح الأمل الجميل سوى الأسى حـيـن الـرجـاء مـبـشـرٌ بـصـبـاح
فدع الأسـى وارقـب صـبـاحًـا آتـيًـا وانـشـق شـهـيَّ أريـجـه الـفـيـاح
سـبـق الأشـعـةَ مـثـلَ أحـلام الـصـبـا وأطـلَّ فـوق بـنـفـسـج وأقـاحـي!
فـامـلأ فـؤادَكَ مـن ذخـيـرة آمـل وانـظـم بـروح الـشـاعـر الـمـفـراح
إني الغنيُّ عن الشروح، فلست من يـصـغـي لـريـبـة شـانـئٍ ووقـاح
فـتـخـلَّ عـن أوهـام ودِّك آمـنًـا ما كنتُ مَنْ ينسى وفاءَ الصاح
وتعالَ في نهجي الكفيل بنعمة من فضل بشرٍ «للطبيعة» ضاح
حيث العوالم إخوتي، وسعادتي مـمـزوجـة بـتـحـرُّقـي وكـفـاحـي
لي كل ما جمعَ الوجودُ من المنى فـي الـنـور والأزهـار والأدواح
وليَ العظائمُ في التأمُّل سابحًا في الكون خلف الكوكب السبَّاح!

ولي الحقيقةُ تاج كل معارفي — وكذا الحقيقة في الحياة سلاحي
وليَ الحياةُ كتاب شعر مفصح — أتلوه في شغف بنشوة صاح
وليَ التبسُّمُ لا الدموع مبلِّغٌ — صلتي بدنيا الحب والأرواح
فأعيش عيش الحلم لكن دائبًا — مترفعًا عن ريبة وتلاح
واللهِ لن تلقى الحياة ذميمةً — إن شئت بل تلقاك بالأفراح
حزنُ الحياة كصفوها، وجميعُها — صُوَرٌ من الأوضاح والأشباح
فإذا أسيتَ رأيتها ظُلَمًا على — ظُلَمٍ، وإنْ لم تأسَ طاب مزاحي

أحمد زكي أبو شادي

بسيش وسربروسي «الحورية الحسناء وحارس قصر الموت»

١

أهلًا «بسيشُ»[١٨] حييتِ أنت مثالا — للفنِّ نستوحيه ما يتعالى
خلدت حسنك للمصوِّر تارةً — وهنيهة للشعر طبت خيالا
ويكاد «سربيروس»[١٩] وهو مروِّعٌ — يُشتاق حين يصوِّر الأهوالا
يا دميةً للحب، بل يا معبدًا — للرُّوح تستجلي به الآمالا
كلُّ الذي مثَّلتِه وعشقتِهِ — حتى الممات نراه فاض جمالا!

* * *

كانت كمالًا لجَّ في تأليهه — «إيروسُ» لم يعشق سواه كمالا
غذَّى آلهُ الحب من تكوينها — مَرآه نورًا رائعًا وظلالا

[١٨] بسيش: هي الحورية التي عشقها إله الحب «إيروس» أو «كيوبيد».

[١٩] هو الكلب الوحشي ذو الرءوس الثلاث والمخالب السامة والجلد الكريه الذي تنضوي فيه الأفاعي.

وقع الأسيرَ لها، وكم من آسرٍ أضحى أسيرًا للجمال مُدَالا
أوفى عليها في إطاعةِ أمِّه مَنْ ذا يردُّ لأفرديت مقالا؟
أوفى كمنتقم لغضبة ربةٍ جعل الجمالُ لها المحالَ محالا
غارتْ من الحسن الذي خلب النهى وأغار في ملكوتها يتلالا
فإذا ابنها يُلقِي السهام مكبَّلا بالحبِّ، وهو الصانعُ الأغلالا!

* * *

لم لا تثور لأفرديتٍ عزَّةٌ و«بسيشُ» تُعبَدُ كالإله تعالى؟
ينسى الرجالُ حقوق ربته وقد تركوا هياكلَها الحسانَ ضلالا
فتنتهمو الحوريةُ الحسناءُ مِنْ سحر الرشاقة وهو لا يتغالى
ومِنَ السذاجة وهي كنزُ مفاتنٍ فمن السذاجة نعبد الأطفالا
إن الجمال هو الألوهةُ، فالورى لا يسجدون لغيره إجلالا

* * *

لم لا تُرَوَّع «أفرديتُ» لملكها حين ابنُها عن طوعِها قد حَالَا؟
مَن ذا يصدق أن رافع مجدها بسهامه يرتدُّ بَعْدُ نصالا؟!
إن العقوق هو المماتُ بعينه لمن استساغت طاعةً تتوالى
عشق الفتاةَ وهام في تقديسها وأرادها زوجًا له فاحتالا
والحبُّ أقدرُ مَنْ يخادع فاتحًا حتى ينال من الحرامِ حَلالا

* * *

قضتِ الألوهةُ حينما حوريةٌ تَبْنِي بربٍّ لا تراه مِثالا
يستمتعان كما يشاء له الهوى ولها، ولكن في الظلام وصالا
قد صانها في مخبأ لغرامه جهلتْه حتى «أفرديتُ» منالا
فتملَّكتْها للشكوك عواصفٌ ألقت عليها حيرةً وسؤالا
كانت إذا أرخى الظلامُ سدوله ألفته نُعْمى لا تُحَدُّ نوالا
حتى إذا جاء الصباح تبدَّدتْ أحلامُها ورأتْه همًّا طالا
وَحَدا بها الشكُّ الأليم لظنِّه خصمًا لدودًا جانيًا ختَّالا

* * *

فـأبـت إبـاءً أن تـعـيـش جـهـولـةً بـمـآلـهـا مـهـمـا اسـتـعـزَّ مـآلا
ودنتْ قُبيلَ الفجر نحو سريره فـإذا الـجـمـالُ يـزيـدهـا إقـبـالا
وإذا الـحـنـوُّ لـمـن رأتـه جـلالـةً لـلـحـسـن يُـرعـش جـسـمَـهـا إذهـالا
والزيتُ يسقط فوق كتف مُحِبِّها كـالـحـبِّ يُـشـعـل قـلـبَـهـا إشـعـالا
فصحا شقيًّا موجعًا في نكبةٍ للحب حين طغى النعيم فزالا!

٢

لـقـيتْ فـتـاهَـا «أفـرديـتُ» فـأدركـت ما كانَ فاصطخبتْ عليه ضرامَا
رِيعتْ لثالوثِ الخيانةِ واشتكت لزيوسَ[٢٠] ترجو نقمةً تتعامَى
سـألـتْـهُ تـسـلـيمَ الـفـتـاة لـبـأسـهـا حـتـى تُـريـهـا الـذُّلَّ والإيـلامَـا
أمَّا «بسيشُ» فقد تملَّكها الأسَى فـرأتْ تـوعُّـدَ «أفـرديـتَ» سـلامَـا
لم تَلقَ غيرَ الموتِ بعضَ جزائها وأبـتْ لـعُـمـرٍ فـي الـعـذاب دوامـا
قد عضَّها التأنيبُ حين حنينها لـمـحـبـهـا قـد ضـاعـف الآلامـا
ما سُخْطُ «أفرُوديت» مهما بالغت فـي الـثـأر ثـأرًا، لا ولـيـس حـرامـا
فمضتْ تناجي «ربةَ الموت» التي تـهـبُ الـمـمـاتَ جـمـالَـهـا الـبـسَّـامـا!

* * *

وقفتْ «بسيشُ» بباب مملكة الرَّدَى والـمـوتُ مِـنْ لُـسْـنٍ لـه يـتـرامـى
مـا كـان إلا «سـربـروس» مـوكَّـلًا بـحـراسـة الـسـرِّ الـرهـيـب دوامـا
فـرأتْ ثـلاثًـا مـن رءوسٍ بـشـاعـةٍ ورأتْ أفـاعـيَ بـيـنـهـا تـتـسـامـى
مَرأى من الفزع المجسَّم حازه شَـبَـحٌ تَـجـسَّـدَ وحـشـةً وظـلامـا
هو «سربروسُ»! فيا له من مشهدٍ يسبي العقول ويخذل المقداما!
لـكـنـهـا رغـم ارتـيـاعِ جـنـانـهـا وقفتْ كما لاقى الحمامُ حماما!

---

[٢٠] زيوس: كبير الآلهة.

* * *

راحت تُيمِّم «برسفونَ»، وقصرُها كـالـمـوت أعـيـا سِـرُّه الأفـهـامـا
رأت الـحـيـاةَ زمـامـهـا فـي رشـوةٍ لـلـخـلـق حتـى مَنْ يـعـاف حـطـامـا
فتحايلتْ ترشو المماتَ فأدركتْ عـبـرَ الـمـحـيـط حـصـونَـه إقـدامـا
عبثت بشارون[٢١] العجيبِ وبُلِّغتْ مـن «سـربـروس» هـزيـمـةً ومـرامـا
شغلتْه بالكعكِ اللذيذِ وسارعتْ للقصر — قصر الموت — حيث أقاما
وهناك ألفت «برسفونَ» عزيزةً فـي عـرشـهـا بـسَّـامـةً أحـلامـا
قالت «بسيشُ»: «لقد جنيتُ جنايةً كـبـرى وجُـزتُ لأفـرديـت مـقـامـا
وسلبتُ «إيروسَ» الجميلَ غرامَه حـتـى غـدوتُ بـه أذوب غـرامـا
شقيتْ بنا الأمُّ الحزينةُ حينما فـقـدتْ بـشـاشـتَـهـا أسًـى وسـقـامـا
فلتمنحيها يا مليكةُ قبسةً منْ سحر حسنك شافيًا قوَّاما»
فـتـبـسـمـت وتـنـاولـتْ قـارورةً جـاءت بـهـا لـتُـضَـمَّـنَ الإلـهـامـا
ومضتْ ولم تنبس بأية لفظةٍ وأتـت بـطـبٍّ حـيَّـر الأحـلامـا
ملأتْ به القارورةَ الحسناءَ مِن سـرٍّ خـبـيءٍ عـزَّ لـيـس يُـسـامـى
فتناولته «بسيشُ» وهي بفرحةٍ تَـذَرُ الـخـطـوبَ أمـامـهـا إنـعـامـا
ومضتْ كما جاءت إلى أن جاوزتْ مُـلْـكَ الـممـات ولـم تـجـزْ أوهـامـا!

٣

حسبتْ لمسعاها المكفِّر رحمةً مِـن بَـعْـدِمـا ريِـعـتْ بـه ألـوانـا
واستعذبتْ طعمَ النجاح فقبلتْ في النور أرض معادها شكرانا
وتطلعتْ نحو السماء فأبصرتْ فـيـهـا «أپـولـو» بـاسـمًـا جـذلانـا
وتـنـهَّـدَتْ لـلـحـبِّ نـهـدةَ ظـافـرٍ فـالـحـبُّ يـغـمـر كـلَّ مـن يـتـفـانـى
حنَّتْ «لإيروس» الجميل وهل سوى «إيـروس» أهـلٌ أن يـنـال حـنـانـا؟
ربُّ الـغـرام فـلـن يـعـيـش لـغـيـره سـحـرُ الـغـرام إذا تـحـجَّـب آنـا

---

[٢١] شارون: ملاح سفينة الموت.

حنت إليه وقد تملكها هوًى لا يعرف التقديرَ والحسبانا
واستعذبت روحَ التحدِّي في الهوى إنَّ التحدي يخلق الفنانا
لِمَ لا وقد ملكت براحتها سنى يَذَرُ الجمالَ مقدَّسا فتَّانا؟
لِمَ لا وفي يدها الألوهةُ أُودِعَتْ فرأت بها خطرَ الممات أمانا؟
فالآنَ تُعجز كلَّ بأسٍ قاهرٍ وترى الهوى مجدًا حلا وتَدَانى
لكنها في حين فضَّتْ سرَّها سقطت صريعتَهُ فهدَّ وخانا
ما كان إلا الموت ما قد طالعتْ من «برسفون» وإنْ يكنْ إحسانا
ما حسنُ ربَّتهِ سواه، وما لها إلاه حُسنًا خالدًا ريَّانا!

* * *

ماتتْ مماتَ الحبِّ في غلوائه والحبُّ تبعث روحُه الأكوانا
فارتاع «إيروسُ» الجميلُ لموتها واستلهم الأربابَ والوجدانا
حتى أعاد لها الحياةَ فأمتعا هذا الوجودَ ملاحةً وجِنانا
والحبُّ يُحيي إذْ يميت، فلن ترى إلا المماتَ يمثِّل الحرمانا

ميلاد الفجر

الشاعرُ الغزِلُ الذي سحر الهوى وسبا الجمالَ ورقَّصَ الأنغاما
فتننْته معجزةُ السماءِ فلم ينمْ يرعى النجومَ وينشد الإلهاما
حتى إذا ما الفجرُ أقبل وحيُه والأرضُ تنفض حولها الأحلاما
ملكتْه أحلامُ الخيال فغاب في لجج الخيال وفي الصلاة تسامى
خشعتْ مَشاعرُه كأنَّ أمامه «عيسى» يبدِّد وحشةً وظلاما
لم يُعرَفا[٢٢] بأبٍ وزان كليهما أمٌّ تضيء بطهرها الأياما
تبع «المسيحَ» الفجرُ في استهلاله عهدًا يردُّ الشكَّ والإحجاما

[٢٢] السيد المسيح والفجر.

غَنَّتْ ملائكةُ الجمالِ بذكرهِ وأستْ بحلوِ غنائها الآلاما
فإذا الهواء تشبعتْ أمواجُه باللحن وامتلأ الفضاءُ سلاما
والبحرُ يَرتقب الشعاعَ كأنه لوحُ القضاء يسجِّل الأحكاما!
سكنت به الأمواجُ إلَّا موجة ناجت فؤادًا صاخبًا وغراما
أمَّتْ رسولَ الشعرِ حتى قبَّلتْ قدميْه، مطفئةً أسًى وضراما
فشدا بلحن الحب ثم تشبَّعت صُوَرُ الوجودِ نشيدَه البسَّاما
فحبَتْ طلوعَ الفجر بالحسنِ الذي سمعتْه منه مرتَّلًا أنغاما!

القلق

أستقبل النعمى كأنيَ حالمٌ ولكن أطلتُ العمرَ بالأحلام
وأنالها والحُبُّ في قلبي لظًى والخوفُ ألفُ شجًى وألفُ ضرامِ
فكأنني النهِمُ الذي تُزْجَى له طُرَفُ التنعم ساعةَ الإعدامِ[٢٣]
يترشف اللذاتِ وهو كأنه يترشَّف المعسولَ من آلام
هذي هي الدنيا: أحَبُّ جمالها قلقٌ وشعلتُها دليلُ ظلام[٢٤]

الحزبية

وإنـــي إذا آثــرتُ رأيًــا أعــزُّه فلستُ على الإيثار بالرجل الحزبي
أرى الحقَّ في الدنيا مُشاعًا موزَّعًا فكيف أقيس الحقَّ بالبغضِ والحب؟
وأقهرُ نفسي إنْ تمادتْ بنزعةٍ فإن التمادي يشبه السمَّ في الطب
قليل له فيه التعافي، فإن غدا غُلوًّا فقدْ يُدني المماتَ إلى القلب

[٢٣] الإعدام: الإفناء.

[٢٤] أي إن ضياءها بمثابة مرشد سابق يتبعه الظلام.

وما الفخرُ للعقلِ الحصيفِ بنزوةٍ — يرى أنها تُنئِي عن الخير للخطب؟!
وأيُّ جمالٍ للتغالي إذا قضى — على الودِّ بين الناس أو أملِ الشعب؟!
إذا شُغِلَ الحراسُ شُغلًا بلهوهم — فلا تلمِ العادي إذا افتنَّ في النهب!
فكيف إذا باتوا خصومًا وكلُّهم — يكيد لمن بالأمس كان من الصحب؟!
هزيمةُ نفسي في مجال محبةٍ — أَحَبُّ إلى نفسي من النصرِ في الحربِ

العزلة

لي فيكِ خيرُ مؤانسٍ وحبيبِ — فالدهرُ لجَّ وزاد في تعذيبي
أمٌّ حَنونٌ أنتِ، أنتِ صفيتي — هيهات تخدعني خداعَ جنيب
مَحَّضْتُها حُبي فما عبثتْ به — في حين قد عانيتُ لهوَ حبيبي
غاب الشعاعُ وأظلم الأفقُ الذي — كم كان مَبعثَ شُعلةٍ لأديب
وأتى المساءُ فليس لي غيرُ الرِّضى — بالليل معتكفًا على تأديبي
جاوزتُ حدَّ الأربعين ولم أزل — كالطفل محتاجًا إلى التهذيب
فلجأتُ للأمِّ التي هي مَوئلي — أوَلَسْتِ أنتِ طبيبَ كلِّ طبيب؟
كافحتُ عمري لا أمَلٌ لأمتي — وأنا أعيش بأمتي كغريب
وسبقتُ جيلي والزمانُ مرحِّبٌ — فإذا الجحودُ طبيعةُ الترحيب
بلدٌ تسود به السخافةُ وحدها — ويُمَجَّدُ المفتون بالتخريب
فترى المآسي فيه شبهَ مهازلٍ — وترى العجيبَ لديه غيرَ عجيب
وترى الفتوحَ هزائمًا لا تنتهي — وترى البطولةَ في سُقوطِ مُريب
ومِنَ العجائبِ أنني عبد له — وكذا الأريبُ هواه غيرُ أريب!

حظوظ الشعوب

يموتُ اللئيمُ ولا يَخجلُ ويَشْقى الكريم ولا يسْفُلُ
وما قيمةُ العلمِ عند النفوسِ وليس لها مَعدنٌ يُصْقَلُ؟
جَمالُ النفوس بتكوينها وليس الجمالُ بما تَحمِلُ
وكم فَنِيتْ في الزَّمان الشعوبُ وقد راح يحصدها المِنجلُ
وعاشتْ على رَغْمِهِ في الدهور شعوبٌ متانتُها أكملُ
حظوظُ الشعوبِ حظوظُ الدماءِ فإنَّ الدماءَ الغنَى الأوَّلُ
وما كرمتْ نُطَفٌ للهوانِ ولا حَقرتْ عندما تنْبُلُ
لأهْوَنُ أن يُستعادَ الزَّمانُ من المجدِ فيمن هَوَوْا وابتُلوا
وأدنى إلى العقلِ غَزوُ النجومِ من الفضلِ في أمةٍ تَهْزِلُ

أبو الدستور

رثاء ثروت باشا

رُوَيدَكِ يا دُنيا عَبثتِ بنا ظُلْمَا
وكلُّ رجاءٍ فيكِ صارَ لنا حُلمَا
عَصَفْتِ بأعلام الديارِ فهَدَّمتْ
نزاقتُك الآمالَ في رُزئِنا هَدْما
ولو كان حَيٌّ عُمرُهُ مِثْلُ قَدْره
لهان علينا أن نرَى عندك اليُتْما
فكيف وقد غيَّبْتِ عنوانَ نهضةٍ
لنا الأمسَ ثمَّ اليومَ قائدَها الأسمى؟
فَتًى رغمَ سنٍّ للشيوخ وعلةٍ
بَنى مُفرَدًا أعلامَ قوَّتها الشُّمَّا
مضى والدُ «الدُّستور» وهو سجينُنا
حزينًا كأنَّ الرُّزءَ أوْرَثَهُ الحُمَّى

مضى يومَ أن صِرْنا نحسُّ ببأسِهِ
وحاجتِنا منه زعيمًا ومؤتمًّا
مضى تاركًا ميراثَه صِدْقَ حكمةٍ
لَدُنْ كان أحجانا وأحصفُنا أعْمَى
فبوغِتَ «وادي النيل» في ليلِ نَعْيِهِ
بكارثةٍ خُسْرًا وداهيةٍ سُقْما
أهابت بنا الدنيا لنعرف قدرَه
فلمَّا عَرَفناه تولَّتْ به لؤما
وقد كان هذا الخطبُ إثمًا مروِّعًا
ولكنَّ لؤمَ الدهر ضاعفه إثما
يمرُّ زمانٌ قبل جُودٍ بمثله
وكم تورث الأحداثُ للأمم العُقْما
لقد كان بنيانًا «لمصر» مُبَجَّلا
كما قد بَنى تاريخَها الناصعَ الفخْما
مضى الرَّجُلُ الصَّبَّارُ والجاهدُ الذي
يمثِّل عنصرًا سوف نُكرمه دَوْما
وما رِيعَ في يوم الهزيمة، مبقيًا
لسيرتهِ الإجلالَ والأدَبَ الجَمَّا
وشَتَّانَ بين النَّصرِ والنصرُ ريبةٌ
وبين جلالِ الهزْمِ إن لم يكن هَزْما
مضى المِدْرَهُ الواعي البصيرُ ومن له
مواقفُ تأبى في النوازل أن تُدْمَى
هُمامةُ نفس كلُّ صَعْب تَرُوضُه
تحوِّلهُ سَهْلًا وتجعله غُنْمَا
وتدفن في طيِّ الرِّغامِ خُصومَةً
فليسَ العظيمُ النفس مَنْ خاصمَ الخصْما
تَوَّلى قضاءَ الناس حتى أبتْ له
مواهبهُ إلَّا قضيتنا العظمى

مضى ليس يزْهوه الشُّموخُ وإنْ تكنْ
مـآثـرُهُ تُـسْـمَـى لـمـجـدٍ ولا تُـسْـمَـى

لـقـد حـاسَـب الـتـاريـخَ قـبـل وفـاتـه
وخـلَّـفَـه الـمـديـونَ يـحـمـده الـيَـوْمـا

وكـم مِـنْ عـظـيـم مـجـدُه مـجـدُ غـيـره
وقلَّ الذي يعطي الورَى مجدَه الضخما

ليكرعْ بنو «مصر» الرَّدى فيكَ مثلما
تـجـرَّعْـتَ فـي إنـقـاذ سـمـعـتـهـا الـسُّـمَّـا

لـيـبـكـوا بـكـاءَ الـنـادمـيـن وإن تـكـنْ
مَـضـت فـرصٌ كـانـت أجلَّ لـهـم حُـكـمـا

ومَـنْ لَـجَّ فـي الـعـدوان مـن دون حـاجـة
فـلا بـدَّ مـن يـومٍ يَـمُـرُّ لـه طَـعْـمـا

فـيـا عَـلَـمًـا قـد عُـدَّ «كـافـورَ»[٢٥] شـعـبـنـا
لـتـهـنـأ! فـلـن تـلـقـى بـك الـكـفـرَ والـوصْـمَـا

بـحـسـبِـكَ لـو عـوديـتَ مـن ألـف مـدَّعٍ
هَـوَى «مـصـر» مَـن فـدَّيْـتـهـا مـخـلـصًـا أمَّـا

حَـرامٌ مَـلَامُ الـكـاشـحـيـن فـإنـمـا
أخـصُّ مـلامـي بـالـذي يـفـهـم الـلَّـوْمَـا

إذا ذهـبَ الـفـردُ الـعـظـيـمُ فـمـوتـهُ
حـيـاةٌ لـه تـبـقـى عـلـى الـدَّهـر بـل تُـنْـمَـى

ومـا شـئـتُ أن أرثـيـك عـمـدًا، ولـم تـكـن
بـعـوْزٍ، ولـكـنْ لـم أُطِـقْ لـلـجـوى كـتـمـا

وقد يَخرُسُ المنكوبُ مثلي، وكم فتًى
لـه مـثـلَ شـعـري عَـوْلَـةٌ هـزَّت الـصُّـمَّـا!

---

[٢٥] هو الكونت دي كافور Count di Cavour بطل الاستقلال الإيطالي ومحقق وحدته، وكان الوزير الأول للملك فكتور عمانوائيل. ولد سنة ١٨١٠م. وتوفي سنة ١٨٦١م.

وَعَدُّوكَ لغزًا في الحياة مشابهًا
«أبا الهوْلِ» في صَمتٍ ينمُّ وما نمَّا
فيا لكَ هذا اليومَ من مُفصح له
دَوِيٌّ بهذا الصمتِ يملؤنا وَجْما
أَفَقنا بِرَوْعٍ حينما أنتَ دائبٌ
فقد كنتَ نجمًا حال في موته نجما
وقد كنتَ ذا القسطين في المدح والقِلَى
فأصبح ذاك القدحُ مدَحكَ لا الذَّما
سواكَ يَرَى أنَّ السياسة صدمةٌ
وكنت تعاف العنفَ مهما يكن حَسْمَا
دهاءٌ به اخترتَ المعاركَ لم تدَعْ
لها الحُكمَ فيما اخترتَ أو عِفتَه جُرما
وحِرْصٌ وحِذقٌ وانتباهٌ مُوَفَّقٌ
إلى فُرَصِ السُّوَّاسِ كالنَّسر إن همَّا
وكنتَ عتيًّا في الصلابة ليِّنًا
فكنتَ حمى العاني وموردَ مَن يظما
وأولعْتَ بالتاريخ حتى وهبتَنا
حياتك سفرًا رائعًا يأسِرُ الفَهْما
وقالوا تجلَّى في مجالٍ محدَّدٍ
ومَن ذا الذي للنَّصرِ قد حَدَّدَ الحزْمَا؟
وقائعُ إن تُحسَبْ عليك صغيرةً
فقد مَهَّدَت للشعب مَا عَزَّ مِنْ نُعمى
فإن نخسرِ النصرَ الأخيرَ فذنبُنا
وحسبكَ أن ضحيت مستبسلًا شهما
وما كنتَ يومًا خانعًا وقتَ شدة
ولا كنتَ إنْ واجهَت حَقًّا ترى الوهما
خبيرٌ بتصريف الأمور فإن أبى
أبَى الطَّيْشَ والأهواءَ والجبن والضَّيما

وقد يبلغ النِّكسُ[٢٦] الجبانُ بصيحةٍ
مسامعَ قوم حِين لا تُسمع القَوْمَا
فإن صدَفَتْ عن صوتك الأمْسَ أنفسٌ
ضِعَافٌ تظنُّ الضعفَ في صيحَةٍ عَزْمَا
فقد أسمع التاريخُ صوتكَ للملَا
فنَمْ هادئًا لا الحُنْقَ تدري ولا الكظما
ومَنْ يحسبِ الهمَّ الحقيرَ لكابرٍ
فقد أعلنَ الهمَّ الحقيرَ الذي ضَمَّا
وُسِمتَ بطبع العبقريِّ مقدِّسًا
كرامتك العُظْمَى فأعْظِمْ بها وسْمَا
فلم تحتقر إلَّا ضلالَ مهرِّجٍ
ولم تستسغْ إلَّا لمأثرة رغْما
ومَنْ يُصغِرِ النفسَ التي هو رَبُّها
فهيهات أن يرقى بأمَّته رَوْما
سلامٌ على روح كروحكَ رَفرفت
على «مصر» توحِي الحبَّ واللطفَ والسلما
كبيرةُ همٍّ دائمًا، وهي لم تزلْ
تلقِّننا أن نُكبر العقلَ والحِلْما
بنيتَ بها أكنافَ مجدٍ موطَّدٍ
وإن كُنْتَ لم ترفعْ لمجدِكَ ما تمَّا

---

[٢٦] النكس: الضعيف.

هدم الأساس

الفاشية المصرية يوليو سنة ١٩٢٨م:

آمنتُ بالنكبات فهي مواعظ … لكن أبيتُ — وقد عقلتُ — جنوني!
لتلقِّنِ الأحداثُ خيرَ دروسها … للغالب العاتي وللمفتون!
وليدأبِ المتطاحنون بحربهم … والغابنُ المسرورُ كالمغبون
لكن وحقِّ العقل خلوا سخركم … بعقولنا بسخائف التبيين!
مَن كان هدَّامَ الأساس فما له … مجهودُ إصلاحٍ ورشدُ أمين
هل بعد أقسام الولاء وحِنثكم … بجميعها تتشدَّقون بدين؟!
صونوا المبادئَ للعقيدة أولًا … ثم استحلُّوا كلَّ ما يغويني
فأنا الضنين بمسمعي لمذبذبٍ … وبمهجتي للحرِّ غيرُ ضنين
وهل الذي قد داس أسَّ يقينه … لو كان يومًا مؤمنًا بيقين
وهل الذي من أصغى لشرح نفاقِه … أو من أقدِّس فضله كخئون؟!
أفسدتم الفرقانَ ثم زعمتمو … هذا الفسادَ نهاية التزيين!
وطلبتمو الثقةَ التي من حقكم … لجنونِكم، لكن أبيتُ جنوني!

الرجل الأبيُّ

محمد سعيد باشا «١٨ يناير سنة ١٨٦٣–٣٠ يوليو سنة ١٩٢٨»:

نُعيتَ غداةَ الرَّوْعِ في نكبةٍ لنا … كأنَّا جميعًا في القُيودِ عَبيدُ[٢٧]
وَمنْ نَالَ هذا الموتَ مِن بعْد سِيرةٍ … تَطيبُ طوالَ الدَّهْرِ فهوَ سعيدُ
وما كانَ قَبْلَ اليومِ مَصْرَعُ قائدٍ … أجلَّ، ولا أرْبَى عليكَ جليدُ
حييتَ مثالًا للرجولةِ نابغًا … ومُتَّ مثالًا للرجالِ تُعيدُ

[٢٧] إشارة إلى تعطيل الحياة النيابية وقيام الفاشية المصرية في ١٩ يوليو سنة ١٩٢٨م.

وأترك عَمْدًا كلَّ علمٍ وحِكمةٍ — لديكَ، وحِذْقًا لمْ يُسِغْه عَمِيدُ[28]
وأترك ذِكرًا للمروءةِ لمْ يَمُتْ — وإنْ قِيلَ ذِكرٌ ماجدٌ وفريدُ[29]
وأترك شَتَّى مِنْ مواقف خُلِّدَتْ — وقوَّةَ بأسٍ ذابَ وهوَ حَديدُ
فحَسْبي ادِّكاري من إبائكَ ساميًا — وصَوْنُك أرواحًا وأنتَ شهيدُ
فمتَّ غنيًّا عن قَصِيدٍ ومَدْمَعٍ — وما بَاتَ يُغْنيَ عنْ رثاكَ قَصِيدُ
ولو كانَ يُغْنى ما غَنِيتُ فإنَّني — أُحِسُّ بأنِّي فاقدٌ وفَقِيدُ[30]

الفضيحة

لمناسبة إقالة الوزارة النحاسية في ٢٥ يونية سنة ١٩٢٨:

سمعتُ قومًا تنادَوْا «يا هَوْلَ هذي الفضِيحةْ!»
وهمْ بصَفوٍ ورَقصٍ منوَّعٍ في شماتهْ
منهم فريقٌ تَبدَّى كأنه ذو ذيولِ
وآخرون أُطيلت آذانُهم في حُبورِ
وغيرُهمْ في ضجيجٍ يعتزُّ مِنْ تعْدَادِهْ
ومن غلوٍّ برأيٍ لحزبهِ وبلادِهْ
تراشقوا باتِّهامٍ وأسرفوا في عَداءٍ
كأنهم غيرُ أهْلٍ أو أنهم أطفالٌ

[28] عاش سعيد باشا طول حياته مهوبَ الجانب يُحْسَب لمهارته السياسية حسابٌ في الدوائر العالية، وهو مبتدع فكرة «الوزارة الإدارية» سنة ١٩١٩ وخلص بحذقه السياسي رقاب المئات من المصريين من نير الأحكام العسكرية البريطانية، وتحايل على دفع نكبات شتى عن الأمة المصرية في ذلك العهد الأسود حيث تفشَّت الوشايات والأهواء وساد الطغيان. وقد تخلَّى عن السياسة فيما بعدُ ثُمَّ في السنوات الأخيرة حينما لم يستطع التوفيق بينها وبين مبادئ كرامته ووطنيته.

[29] إشارة إلى مأثرته العظيمة في إنعاش وإحياء جمعية «العروة الوثقى» منذ نشأتها، حتى أصبحت قوةً معدودةً لنشر التعليم وصون الأيتام وإنقاذ اللقطاء، ولأداء خدم شتى اجتماعية وعلمية.

[30] إشارةً إلى ما كان بين الشاعر ووالده والفقيد العظيم من أواصر محبة قديمة.

وثَمَّ في البُعْدِ عنهم «مصرٌ» تَئنُّ وتَبْكي
وقد أُحيطتْ بنارٍ مِنْ قَهْرِها ودخانِ
والغاصبُ المتمادِي يرنو لها في ابتسامٍ
وأهلها مُسْعِفوه بما يزيد اللهيبَا
وهكذا حجَّبوها عنهم بسور الدُّخانِ
وأسرفوا في سَبابٍ كما تشاءُ الحماقهْ
وكلُّهم في انهزامٍ مقسَّمٍ أو جنونٍ
بَيْنا الجميعُ تُنادَوْا: «ياً هولَ هذي الفضيحهْ!»

الصنم المرهوب

لم يَخلقِ الصنمَ المرهوبَ في زَمنٍ	إلَّا الألى خَلقُوا في الذلِّ أنفسَهمْ
خافوه والخوفُ مجبولٌ بطينتهم	وحاذروه وما خافوا وساوسَهمْ
لو يعقل الناسُ ما هانوا ولا وهنوا	ولا ارْتَضوْا أن يكون الظلمُ سَائسَهمْ؟

مصر الجريحة

همسة في الأذن

تكلَّمي! تكلَّمي!	ولْتَسْلَمي ولتغنمي
تكلَّمي يا ساحرهْ	تكلّمي يا آسرهْ

تكلمي! تكلمي!

قد أقسموا بحبِّهمْ	وأسرفوا بطبِّهمْ
وصوَّروا الدنيا لَهُمْ	ومجَّدوا أهوالَهُمْ

تكلمي! تكلمي!

باسم العُلى تحصَّنوا	وفي حماكِ آمنوا
كلٌّ بدعواهُ يَصيحْ	والموطنُ العاني جريحْ

تـكـلـمـي! تـكـلـمـي!
حُـمِّـلـتِ أعـبـاءً كـثـارْ والـكـلُّ يُـزْهَـى بـالـعـثـارْ
سـاءوك والـحِـلْـمُ الـجـليلْ مِنْ طبعك الصافي الجميلْ
تـكـلـمـي! تـكـلـمـي!

اليد النكراء

جـهـادًا أيُّـهـا الـشَّـعْـبُ الـذلـيـلُ فـإن الـسُّـخـطَ أقـتَـلُـهُ الـقـلـيـلُ
أيُـغـنـي الـبَـثُّ فـي زَمـنٍ عـلـيـلٍ وهل يُشْفَى من البثِّ العليلُ؟
خَـبرنـا مِـبضـعَ الـجـرَّاح أجْـدَى إذا اقتحمَ الـوَرَى الداءُ الوبيلُ
أبِنتُ «أمونَ» تُرهقها العوادي ومـثـلـكَ لا يـثـور ولا يُـديـلُ؟
تَـقَـدَّمْ وارفـعِ الـجـبَّـارَ لـكـنْ على صُلْبٍ وإنْ هانَ الـقتيلُ!
فبئسَ «يدُ الحديدِ»، وبئسَ شَعْبٌ يُـحـاذرُهـا، وهـذا الـمـجـدُ غـيـلُ
ومـا قـطـعُ الـيـدِ الـنـكـراءِ إدًّا فـإن فـنـاءَهـا الـحـدَثُ الـنـبـيـلُ!
تـقـدَّمْ! لا تـخَـفْ يـومًـا مُـحـالًا! وهل في الجبن إلا المستحيلُ؟!

عهد الذمم

درَج الـزَّمـانُ فـكلُّ ذهـنٍ شـائـخٌ فـيـمـا نـحِـسُّ، وكلُّ ذهـن عـاطلُ
وَتقوَّضَت ذِممُ النفوس فلم يَعشْ حُـرٌّ ولـيـس لـه صَـديـقٌ خـاذلُ
وغدتْ لنا صُوَرُ الحياةِ مَهازلًا ومن المصائبِ لو فطنتَ مَهازلُ
مـا هـذه الـرِّمَـمُ الـتـي يـدعـونـهـا ذممًا وليس بها النزيهُ الكاملُ؟!
كُشِفَ الحجابُ فليس يقبل ضَيمَه باسم الصلاح على التوهُّم غافلُ
ومَن ارتضَى ذُلَّ الـخداعِ بعلمهِ فـأعزُّ منه على الـجـهـالـةِ سـافلُ

صديقان

ولـي صديـقـان مـهـمـا   هَـفَـوْتُ صَـدًّا عُـدَاتِـي
عُـدًّا جـمـاديْـن لـكـنْ   قد شاطراني صِفَاتِي
الـمُـجْـهِـرُ الـمُـتَـفَـانِـي   في الكَشْفِ عن مُعضلاتي
والـهـيـكـلُ الـعَـظـمِـيُّ   مُـنَـزَّهًـا عـن أذاةِ!

***

يا مُجْهِري أنتَ عوني   إذا جَـفـانـي لِـدَاتـي
إلـيـكَ مَـلـجـأُ هَـمِّـي   فأنتَ قاضي القُضَاة
لم تَعرفِ الكذبَ يومًا   ولا حـديـثَ الـرُّوَاةِ
إذا حـكـمـتَ فَـحُـكْـمٌ   مِنْ عَالـمِ الـغـيـبِ آتِ!

***

يا هيكلي أنتَ خِلِّي   بـل أنـتَ والـلـهِ ذاتـي
بُـعِـثْـتَ حـيًّـا ومـيْـتًـا   وفـي الـمـماتِ حَـياتـي
يَـخـالُـكَ الـنَّـاسُ عَـظْـمًـا   مُـعَـلَّـقًـا كـالـجُـنـاةِ
وأنـتَ أنـتَ نـجـيِّـيـي   على السِّنينِ العواتي
سـاجـلـتَـنـي كـلَّ رأيٍ   عن غامضِ الفلسفاتِ
فـكـنـتَ مـثـلَ الـمـعَـرِّي   وكُنتُ «داعي الدعاةِ»
لم ألقَ في الناسِ حُرًّا   أبـثُّـه آهـاتـي
حـتـى وَجَـدْتُـكَ كَـنـزًا   مِـنَ الـعـزاءِ الـمـؤاتـي
أيـقـبُـحُ الـعـيـشُ حـتـى   نرَى الغِنَى في الممات؟!

السياسة

حَسْنَاءُ لكنْ لا حَنَانَ بِلَحْظِها　　وفُؤَادُهَا كالصَّخْرِ ليس يَلينُ

يَغويكَ مَظْهَرُهَا وعِنْدَ لقائِهَا　　تُزْهَى بِرِقَّتِها وأنت غبينُ

لا تَسْتحي أبدًا بِرَغْم تَمنُّع　　ووُعودُها موهومةٌ وظُنونُ

وَمَقالُها حُلْوُ النِّفاقِ، وما لَهَا　　غَيْرَ الرِّياءِ، ثَقافَةٌ وفُنونُ

لكنَّهَا طوْعٌ لِعَقْلٍ غالبٍ　　في فَتْحِهِ الجبَّارِ ليس يَهُونُ

فَلأجْلِهِ كُلُّ التحايُلِ عندها　　للنَّصْرِ سوف يهون حيث يكونُ

الشكوى

لمن تُرفعُ الشكوى إذا الناسُ كلهم　　صغيرٌ ومَنْ يُشْكَى إليه صغيرُ؟!

وُلِدْتُ بخصْبٍ كلُّ ما فيه مجدبٌ　　وكلُّ عزيزٍ نرتجيه حقيرُ!

فلا مَنطقٌ فيه سوى منطق الأَذى　　يعزِّزه — فيما يُقال — ضميرُ

وكم مُعْرِضٍ عَنِّي ولم يَدرِ أنني　　عَزُوفٌ على قلبي الودود أثورُ

تكلفني الأيامُ ودَّ الذي له　　ودادي حَرَامٌ — لو أطقتُ — وزورُ

وما النَّاسُ إلا خادعٌ وَهْمَ خادعٍ　　فكلٌّ بصيرٌ يُتَّقَى وضريرُ

غِناايَ من النفسِ التي لن أضيمَها　　وأقتَلُ ما ضَامَ النفوسَ غرورُ

فليس مُضيري وَهْمُ مَنْ هو شامخٌ　　عليَّ، فحسبي مهجةٌ وشعورُ

شعورُ امرئٍ مهما شكا الدَّهرَ أو بكى　　تفجَّر منه للمحبَّة نُورُ

لمن تُرْفعُ الشَّكوى إذن حينما الورى　　ضوارٍ: فكلٌّ كاسرٌ وكسيرُ؟

شكوتُ لنفسي وَحْدَهَا حين لُمْتُها　　فإني على تهذيبها لقديرُ!

وإني على حمل الفجيعة قادرٌ　　إذا قيل غيري بالأذاة فخورُ

أئنُّ وقلبي طافحُ البِشر هازئٌ　　ودَمْعِي مُصَابٌ تارةً وحُبورُ

تآلفتِ الأحداثُ عندي كأنَّما　　أشاهدُ مَلهًى للزمان يدورُ

وجاورتِ المأساةَ فيه مهازلٌ　　ففاضَ على إثرِ الدموعِ سُرورُ

فيا قلبُ ذبْ أو لا تذبْ ملءَ حسرةٍ! لـكـلِّ مـمـاتٍ فـي الـوجـودِ نـشـورُ
تشابهَ عندي العَدْلُ والظلمُ للورى كما تتجلَّى في القصورِ قبورُ!

العابثون

أبينا العُلى وعَزَفْنَا النشيدَا ورُحنا نُهيِّئُ للظُّلمِ عيدَا
فيَهتف ما شاءَ للعابثين خطيبٌ ويتلو سواه القصيدَا
ولو أننا قد عقلنا الحياةَ رأينا التصاغرَ نحسًا جَديدَا
يدٌ في الحديدِ فرِحنا بها وإنْ لطمتنا وصرنا عبيدَا
غرورُ الضريرِ بمهوًى له يُلاقي به الويلَ موتًا أكيدَا
فهل فطنةٌ بعدَ هذا الخمولِ فنعرف أقدَارَنا والوعيدَا
وهل هَبَّةٌ فيخرُّ الظلومُ ويعرف منَّا الجزاءَ المبيدَا
دعوا الحلْمَ، ما الحلمُ يجزي الطغاةَ أليسَ الحديدُ يفلُّ الحديدَا؟

هدية شهد

أبيات شكر ومودَّة بعث بها الشاعر إلى صديقه محمد أفندي إبراهيم الأَسيوطي على ظهر صورة «جنَّة النحل» وقد وافته منه هديةُ شُهدٍ ثمينٍ:

غَنِمْتُ شهيَّ الشهدِ منكَ، وإنَّهُ لأَصفى الذي يُشتاقُ مِنْ جَنةِ النحلِ
كأني وقد عاينتهُ ثُمَّ ذقتهُ أذُوقُ وُعُودَ الحبِّ دانية الوصلِ
له عِطرُ أحلامِ الغرَامِ، ولونهُ كَلوْنِ نقاءِ الحُبِّ جَلَّ عن الختلِ
رأيتُ بهِ أصفى ودادِكَ ريِّقًا على الرُّغمِ من بُعدٍ تحملتَهُ مثلي
وقال صديقٌ: كم ملايين نحلةٍ أتتكَ بهذا الشهدِ منسيَّةَ الفضلِ!
فقلتُ: أرَى فيه هديَّةَ عالَمٍ من الحبِّ قبلَ النحلِ في الجمعِ والبذل
به تُحفةُ الأَزهارِ للنحل مثلما به تحفةُ الإنسان للصادقِ الخِلِّ

فـأهـلًا بـمـعـسـولِ الـولاءِ، وعـلَّـهُ دلـيـلٌ إلـى حُـسْـنٍ وطِـبٌّ لِـمُـعْـتـلِّ
متـى ذُقـتُـه صَـوَّرتُ لـلـقـلـب رشـفـةً من السحرِ أحْيَتْ خيرَ مَن عشقوا قبلي!
فـأحـيـا بـأحـلامـي، ومـاذا لـشـاعـرٍ سوى عالَمِ الأحلامِ في الحبِّ والنُّبل؟

* * *

زفـفـتُ ثـنـائـي لـلـصـديـقِ «مـحـمَّـدٍ» فـمـا اخـتـرتُ إلَّا طـاقـةَ الـوردِ والـفـلِّ
ونـمَّـقْـتُـهَـا فـي غَـيـرِ عَـمْـدٍ، فَـحَـسْـبُـهَـا وِدادِي، وعَـرْفٌ نَـمَّ عن جـنـة الـنـحـل

الحياة الميتة

إذا شئتَ أمنًا بهذي الحياةِ وآثرتَ ألَّا تُلَاقـي الـخَـطْـر
فـعـيـشُـكَ أدنـى إلـى مـيـتـةٍ كمغتربٍ في جبالِ القمرْ
خلتْ من جراثيمِ أسقامنا وفـيـهـا الـحـيـاةُ مماتٌ أمرّْ!

العائدة

يا صُورةً عادتْ فؤادي العليلْ هل يَخدعُ الطبُّ ويأبى الجميلْ
مَن مُبلغُ الحُسنَ — وفي بُعدِهِ نـاري — حَـلَالٌ لـه أن يُـنـيـل؟
يا هاجرًا — يَحسبُ في هَجرهِ طبي ونفعي — قد عَدَاكَ الدليل
هـذا دَوَائـي مِـن جَـنـاكَ الـذي حَرَّمْتَه حتى غدا المستحيل
مـا لـي سـواه فـالـهـوى نـفـحـةٌ لـلـروح لا صُورةُ وجهٍ جـمـيـل
هـل يـجـمـع الـفَـنُّ بـإعـجـازه ما أنتَ مِن فنٍّ عزيزٍ نبيل؟!
أرسلتَ لي الظلَّ فمن لي غدًا بالخلد مِن عَطفِكَ فهو الظليل؟
لا حُـرقـة الـنـار بـهـجـري، وكـم تَستصغرُ النارَ بقلبي العليل!

فنائي

لـم أدرِ فـيـكِ الـحُـبَّ إلَّا ثـورةً ... بـدمـي، وإلَّا لـهـفـةً لـفِـنـائـي
حُسْنٌ كحسنِكِ لا يُقَدَّس بالمُنَى ... وخـواطـرِ الـعُـشَّـاقِ والـشـعـراءِ
لكنْ يُقَدَّسُ باشتعالِ عَواطفي ... لكِ كاشتعالِ النجمِ في الجوزاءِ
يَفْنَى بها جسمًا ونورًا ثائرًا ... ويعيش حين يموت في الشهداءِ

الثوب الحي

لـمستُه فـكأنـي قـد لـمـستُ بـه ... روحًا، وخاطبتُه لهفانَ فاستحيَا
كم طافَ حولي أناسٌ لا حياةَ بهم ... وكـم رأيـتُ جـمـادًا شـاعـرًا حـيًّـا
ما أروعَ الحُبَّ في سِحْرٍ يُحيل به ... مـا لا يُـحَـبُّ جـمـالًا مـنـه عـلـويًّـا!

ثأر الحب

لا تخافي الثأرَ من نفسِي الحبيبهْ ... إنــه ثــأرُ عــبـاداتٍ عـجـيـبـهْ!
ثـأرُ نـفـسٍ تـتـفـانـى فـي هـواكِ ... كـالأغـانـي قـد حـوتْـهـا شـفـتـاكِ
أتـنـاهَـى فـيـكِ رُوحًـا وكـيـانَـا ... كتناهي الظلِّ في النُّورِ افتتانَا
إنـمـا رُوحـي وجـسـمـي تـوأمـان ... يُـحْـرَمـانِ الـحـظَّ أو لا يُـحْـرَمـانِ
فـدعـيـنـي فـي عـبـاداتِ الـجـمـالِ ... أجـمـعُ الـحِـسَّ وأطـيـافَ الـخـيـال
فـإذا بـي فـاقـدٌ كـلَّ وجـودِي ... لـكِ يـا مـرآةَ أحـلامِ الـوجـود
لستُ مَنْ يحيا للونٍ مِنْ هيامِ ... إنـمَّـا أحْـيَـا وأفـنَـى فـي الـغـرام
أشربُ الكأسَ ولا أنسى الثُّمالهْ ... كالنَّدى إذْ يرشف الصبحُ جمالهْ
كيف أرضى رشفةً منك وأنسَى ... أنـكِ الـكـأسُ الـتـي تـفـتـرُّ أنـسَـا؟
عَلِّميني رشفَها حتى النهايهْ ... حـبـذا هـذا الـتـغـالـي فـي الـغـوايـهْ

عَلمينـي رشفَـها حتـى فنائـي ‏ ‏ ‏ هـكـذا الـحـظُّ بـمـوت الـشـعـراءِ
فـإذا بـالـثـأر مِـنْ قـلـبـي ومـنـكِ ‏ ‏ ‏ وإذا بـالـثـأر نُـعـمَـى مِـنْ لَـدُنـكِ!

البوهيمي

يـا حُـبُّ مـا لـكَ لا تـديـنُ بـأمـةٍ ‏ ‏ ‏ أبـدًا، ومـا لـكَ لا تـديـنُ بـديـن؟
ساويتَ بين الناس حتى أصبحوا ‏ ‏ ‏ لـكَ كـالـرعـايـا فـي مُـنًـى وأنـيـن
وتُعَدُّ في الأربابِ حين نراكَ في ‏ ‏ ‏ قـلـقٍ عـلـى قـلـقٍ وحـظٍّ غـبـيـن

شعر الجمال

(١) رسالة وإجابة من الأستاذ أحمد الشايب:

من القاهرة: قلب مصر النابض، ورأسها المفكِّر، ومقرِّ الجلال الشرقي، إلى الإسكندرية: عتبة الديار، وثغرها البسَّام، ومهبط الجمال: جمال الشرق والغرب، وقرارة الهوى: هوايَ وهواك.

لهْفَ نفسي! كيف صَبرَتْ على فراق الإسكندرية التي لا يخفق نسِيمُها إلا بمعاني الرِّقة، ولا يصخب بَحْرُها إلَّا من حرارة الوجد؟ فأيُّ عشقٍ صادقٍ بين اليبس والماء: بعيدان قريبان، ملتقيان مفترقان؟ ألست يا سيِّدي أوْلَى الناسِ بتصوير هذا الجمال بفَنِّك الشعري وعبقريتك الأدبية؟ ويلٌ لك في الغد من التاريخ إذا قصَّرْتَ، أمَّا أنا فالويل حالٌّ بي. أشكالٌ من الناس والعقول، وطرائق من الثقافة والطباع، أراها متبرِّمًا مطمئنًّا، فما كان أغناني عن تحمُّلها، وما أحوجني إلى تعرُّفِها!

آملُ أن تكون مسرورًا بعشِّ بلبلك، وأرجو أن توفقَ إلى وَحْيِ الشعرِ الأول، وإليك تحياتي القلبية.

(٢) رسالة وإجابة من صاحب الديوان:

تلقَّيْتُ مِنْكَ الودَّ جذلانَ صافيَا … فأهلًا بودٍّ كان للشعْرِ راويا[٣١]
تُسائلني عن مَوطن الحسْن والهوَى … وتَحسبهُ قد صار للقلب شافيَا
وباسْم الهوى والحُسْن تدعو عواطفي … لتبذلَ أحْلَى الشْعرِ «للفنِّ» حاليا
فوا حَزَني في حُرْقَةِ الْهجرِ بَعْدَما … تذوَّقْتُ خمْرَ «الحبِّ» نشوانَ صاحيا!
أعادَ إليَّ الرُّوحَ مِنْ رَاح قبلةٍ … وَوَلَّى سريعًا ناسيَ العهدِ سَالِيا!
لمَنْ بَعْدَهُ أحيا؟ وأين تمتُّعي؟ … وهل ألتقي والحبَّ في العيشِ ثانيا؟
فيا ليته قد فاتَني في شقاوتي … سعيدًا، فقد أصْبحتُ بالبعثِ شاقيا!
وكان غِذائي الذِّكرَ مِنْ سالِف الهوى … كما كنتُ أمضي «للطبيعةِ» شاكيا
فأصْبحْتُ أشْكو مَرَّتين بحَسْرَةٍ … وأخجلُ مِنْ عَذْلِ «الطبيعة» آسيا!
وأرْقبُ ما قد صَوَّرَتْ من روائع … ضريرًا، وألقَى باسمَ الرَّوْضِ باكيا!
وأخْشَى هديرَ البحْر مِنْ بعد فتنتي … به، كخصيم لجَّ بالسخر داويا!
تجلببتِ الدنيا حيالي بظلمةٍ … وكلُّ دواءٍ صار عنديَ دائيا!
فكيف تراني أنظم الحبَّ ثانيًا … قريرًا، ومِثلي يُحْرَمُ الحبَّ سانيا؟!
وما الحسنُ في شِعرٍ بغير مغرِّدٍ؟ … وما الخيرُ في «عُشٍّ» إذا كان خاليا؟
وهَبتُ فؤادي «للجمال» فما وَعى … غرامي، ولو وَافَى لعِشْتُ الموَافيا
وَحوَّلتُ ما يُسدِي إليَّ بدائعًا … من الشِّعْر يتلوها المتيَّمُ جاثيا!
ولكنْ هي «الدنيا»: تنعِّم صخرةً … وتترك فياضَ العواطف عانيا!
إذا حُرِمَ «الفنانُ» عطفَ ملاحةٍ … وحُبٍّ فلا تسألهُ إلا المراثيا!

[٣١] راويا: ساقيا.

العبادة

عبَدْتُكِ حتى تساءَلَ دهري: أمَا لكِ في الكونِ نورٌ شَبِيهْ!
وما الدَّهرُ يَجْهَلُ ما في الحياةِ ولكنَّه المستنيرُ السَّفيهُ
فهل علمَ الدهرُ مَعناكِ لي فمعناكِ من مُهْجَةٍ تفتدِيهْ؟
خَلقتُك في مهجتي من غرامي فإنَّ الملاحةَ ما نشتهيه
خَلقتُكِ من مُبدعَاتِ الخيال ومِنْ رُوحِ شعرٍ عزيزٍ نزيهْ
فلمّا عَبَدْتُكِ كُنْتِ المثالَ لِفَنِّي، وكان مَدَى الفَنِّ فيهْ
إذا صاغَ مثلَكِ حُبُّ الإلَه فحبِّي اصطفاكِ لما يَصطفيه
وَخصَّ بك الفنَّ مِنْ رُوحِهِ فصرتِ المثالَ لحسنٍ وتِيهْ
وأصبحتُ مُبْدِعَكِ العبقريَّ وعارضتُ دهري بما يَدَّعِيهْ
عَبَدْتُك، لكنْ لفنِّيَ حَقٌّ عليكِ وإن كنتِ لم تَعرفيهْ
كم عابدٍ حَقُّهُ أن يُقَدَّسَ ما بلَّ حتى صدًى يحتويهْ
وقد خَدَعَتْه مجَالي الحيَاة فتاهَ بلَيْلِ الحيَاةِ الكريهْ!

لهفة

يا مِصْرُ يا وَطَني الباكي في الأسلاكِ
لِمَنْ بُكاكِ ونَجْوَاكِ؟ هل عاداكِ
إلا بنوكِ وأهلوكِ؟
الدهرُ لم يُذْنِبْ يومَا مهما أدمَى
ذنبًا نَرى فيه الظُّلْمَا نارًا ودَمَا
كالذَّنبِ مِنْ لهوِ بنيكِ
فُتِنُوا بألوانِ الطيشِ كُلٌّ يَمْشِي
إلى التطاحنِ كالوحشِ هَلْ للطيشِ
إلا عَواقبُ تُشجيكِ؟

قد مجَّدُوا عيشَ الأحزابْ وَمَـــدَاه خـــرابْ
كم مِنْ أجيرٍ في الكتَّابْ هــيــهــاتَ يُــعــابْ
وهـو الـوبـاءُ لـواديـكِ!
لـم يَبلُغُوا يومًا مَجْدَا أنَّـــى امـــتـــدَّا
إلا بـوحـدتِـهـم، فـغـدَا وَهْـــمًـــا وسُـــدَى
مـا كـان كـنـزًا يُـغـنـيك
تنازعوا لقبَ «الأبطالْ» حُــلــمًــا وخــيــال
ومـا دَرَوْا أن الإجـلالْ مــجــهــودُ رجــالْ
قـاسـوا بـمـاضٍ آتـيـكِ
هي البطولةُ في الحبِّ لا فـــي الـــحـــربِ
فـأيـن أيـن ذوو الـلـبِّ وذوو الـــطـــبِّ
الـحـافـظـون تـآخـيـكِ؟
يا ويحَ مَنْ جعلوا الأقلامْ مَــســمــومَ ســهــامْ
واستسهلوا لهوًا بخصامْ فـــإذا الأَخْـــصـــامْ
أعـلامُ مِـصـر وأهـلـوك!

نداء الكرامة

نشر الأمير شكيب أرسلان في سنة ١٩٢٨ دعوةً ساميَةً، حاثًّا على العناية بمقاومة الدعاية الأوروبية ضدَّ المسلمين، فأكبر الشاعرُ دعوته هذه التي اعتبرها جديرةً بعناية الأمم العربية جمعاء لا المسلمين وحدهم؛ لأنَّ ما يصيب المسلمين من سوء يمسُّ أبناء العربية عامةً على اختلاف مذاهبهم وقومياتهم، فهي إذن دعوةٌ شاملةٌ، وما كرامة المسلمين إلَّا كرامة العالم العربي بأسره، ومن يفته البرُّ بوطنه فالغالب أنه لن يبرَّ بالإنسانية:

حُـمَـاةَ الـحـمـى وبُـنـاةَ الـجـلالِ أجِـيـبـوا نِـداءً لِـخـيـرِ الـرِّجـالِ!
أجـيـبـوا نِـداءَ الـكـرامـةِ حـتَّـى تـكونَ الـفِـعـالُ مَـعـانـي الـمـقـالِ
فـلا خَـيـرَ فـي صيـحـةٍ أو فَـخـارٍ ولا فـي الأمـانـي العِـرَاضِ الطوالِ

ولا في شَكاةٍ مضتْ بينكم   فعاشت وماتت كطيفِ الخيالِ!
ولكنَّما الخيرُ في بَذلِكم   لصونِ الحياة بغالٍ وغال
وقد يستوي العيشُ والموتُ إمَّا   تمادَتْ حياة الهوى والضَّلالِ
أفيقوا ولا تُكثروا مِنْ حديثٍ   كحلمِ الشُّذُوذ الكثيرِ الخبالِ!
فنحنُ بدُنْيا سِباقٍ عجيبٍ   وما في السباقِ حديثُ اتِّكالِ
إذا سُوِّغَ القولُ فيهِ فَهذا   مَقالُ الفعالِ القرينُ الفعالِ
تُحارِبُكم أممٌ قولُها   دهاءٌ، له مِثلُ وقعِ النصالِ
أحدَاثُها كسُقُوط الوباءِ   تُتابع دنياكمو بالوبالِ!
دعاياتها السُّمُّ يُودِي بكم   إذا امتنعتْ عن لهيبِ القتالِ!
حُروبٌ تُنوِّعها دائمًا   وَحظُّكموُ الخُسرُ في كُلِّ حالِ
فهلَّا حفظتمْ كراماتِكم   بحسنِ الدَّهاءِ ورُوحِ المعالي؟
وهلا غرستمْ إخاءَ الشعوبِ   بسعيٍ حكيمٍ وجُهدٍ مُوالِ؟
فتُطفأ نيرانُ مَنْ بيَّتوا   لكم ليفوزوا بكلِّ احتلال
دَعونا مِنَ الفخرِ في ذكركم   دمًا للفداءِ وجُودوا بمالِ!
وكُونوا رجالًا بأعمالكم   وجُنَّةَ[32] حَزمٍ أمامَ العوالي
ولا تسكنوا مِثلَ صُمِّ السِّلَام[33]   إذا ما الكرامةُ أوحَتْ بقالِ
فلستم مَدامِنَ[34] ماضٍ جليلٍ   ولكنكم رُوُحهُ بالتوالي
وكشَّافةٌ لغدٍ يَرتَجي   تَطلُّعَكمْ لمثالِ الكمالِ
مُصابُكمُو كلكمْ واحدٌ   وخَطْبُ «الصليب» كخطبِ «الهلال»
هو «الغربُ» يحسبكم لقمةً   له، ويراكم بعهدِ انحلَالِ
وأحسبُ حَتى على الملحدِين   فروضًا، فهذا مقامٌ لآل
فكيف إذا غفلَ المسلمونَ   وجُلُّ المصابِ لهم في المآلِ؟!
أكاد أرى فرْضَ هذا النداءِ   كفَرْضِ الصَّلاةِ بروحِ اتِّصالِ!

[32] الجنة: ما يقي من السلاح.
[33] صُمُّ السلام: الحجارة الصلبة المصمتة.
[34] المدامن: الآثار.

فمن لم يُجِبْهُ فما زالَ يَلهُو   ويحيا ضريرًا بدُنيا المحالِ!

* * *

رَأيتُ عُلَى «الشعرِ» في وَقفِهِ   عَلَى «الحقِّ» مُسْتَوزِرًا «للجَمالِ»
ومَنْ فات حَقًّا لأوطانِهِ   أيذكر حَقَّ القرونِ التَّوالي؟
وأوطانُنا موطنٌ «للجمالِ»   ومَهدُ «الحجى» مِنْ عصورٍ خَوالِ
ودارُ «النُّبُوَّةِ» و«الفلسفاتِ»   ومِصباحُها مِنْ قديمِ الليالي
فلا كان شِعرِي إذا لم يَقُلْ   نشيدَ الجمالِ لها والجلالِ!

تمثال النهضة

نُظِمَتْ قُبيل رفع الستار عن تمثال نهضة مصر بالقاهرة في ١٣ مايو سنة ١٩٢٨:

لِيُرْفَعِ السِّترُ عن تمثالِكِ العالي   يا نهضةً مثَّلتْ آمالَ أجيال
قد طال منَّا ارتقابُ البرِّ في شغفٍ   كيما نحيَّى معاني وحيِهِ العالي
وكيْ نُصيخَ إلى سرٍّ يبوحُ به   للمهتدين فنفشيه لجُهَّالِ
مَنْ قال ذلك صَخْرٌ لا حياةَ به   وذلك الفنُّ أحجارٌ بتمثال؟!
وأنها صنعة الإتقان في حَجَرٍ   ومادَّةٌ نُحِتتْ في مظهر غالي؟!
ما كان إلا رسولَ الأمس يوقظنا   كما تيقَّظ «بلهوبٌ» لآمال
و«الفكرةُ» الحرةُ الشَّمَّاءُ تُرْشِدُنا   إلى مناهج أحلامٍ وأعمالِ
وَرَمزُ همتنا مِنْ بَعد رَقدتنا   دهرًا فلم نُعطَ حتَّى قدرَ أطلالِ
ومُرْجِعُ «الفنِّ» مِنْ ماضي جلالته   فيَبعثُ العَوْدُ فينا رُوحَ إجلالِ
هذا كتابٌ حَوَى إلهامَ عزَّتنا   فمن يفتْه فمخلوقٌ لإذلالِ
تأمَّلوه بني قومي فينعشكم   الشعرُ فيه قرينُ النحتِ للتالي
هذي الغرانيقُ ليست في مظاهرها   لكنْ بأرواحها الخرساءَ للسَّالي
الرَّاوياتُ لمن هشُّوا لها ووفَوْا   والناطقاتُ بأحكامٍ وأمثالِ

منها العواطفُ ينبوعٌ يجود لنا عند الظماء بإنهالٍ وإعلالِ[٣٥]
كما تَرقْرَقَ مِن صخرٍ لعاشقه نبعُ الطبيعة يجزيه بسلسالِ
تَسيلُ حتى قرار النفس راويةً مِنَّا الشعورَ وتُزجينا لإقبالِ
كأنما هي في إيحائها نغَمٌ بل إنها نغمٌ في جَمٍّ أشكالِ
تفيض منها لموسيقى الخلودِ مُنًى ملءَ انعكاسٍ لأضواء بآصالِ
فهذه نُخَبُ الألحان صامتةٌ العينُ تخطفها نقلًا إلى البالِ
وتسبق الأذنَ في تصوير رَوْعتها إلى النُّفوس فتُغنيها بآجالِ
«الفنُّ» في مذهبي دينٌ أوحِّده وقد تنزَّه عن عجز وأغلال
وكلها رسمُ موسيقى الحياة وما من فارقٍ بينها في عُرفِ لال
والنَّحتُ كالشعر والتَّصوير في ألَقٍ فكلُّها وَحدةٌ في حُسنها الحالي
تعيشُ وَحْيًا، وليست مادَّةً عُرضَتْ وكلُّها جَوهرٌ لا مَظهرٌ بالي
فليس للنَّاقد الفنَّان عاشِقها تفاضلٌ بين أقدارٍ وأفضال
جميعُها نفحةُ الرَّحمنِ خَالِقنا وكلها سِيَرٌ مِن رُوحه الغالي
و«مصرُ» مهدُ فنونٍ منذ نشأتها مَهدُ العباقرة الأحياء والنال[٣٦]
قد علمتْ قَبلُ آشورًا وما نسيت يونانَ في غير إدلالٍ وإخجالِ
ونحن أولَى — بني قومي — بمعرفةٍ لما تبوح به من سائحٍ جالي
ونحن أحرى بتقديسٍ نُوَجِّههُ إلى تماثيل ذكرى النصر والآلِ
إذن فطوفوا حيالَ «الفنِّ» والتمسُوا جلاله وهُدًى من مجدنا الخالي
مجدان قد جُمِعَا في مَشهدٍ عجبٍ ويُغنيان غِنًى عن كلِّ تسآلِ!

* * *

«مختارُ» مصرُ التي مثَّلتَها شكرتْ لكَ الوفاءَ لماضي الذكر والحال
وذاك تمثالُ «رمسيس» برقدتهِ في «البدرشين» قريرٌ دون تعذالِ![٣٧]

---

[٣٥] الإنهال: السقي الأول، والإعلال: السقي المتكرر، والغرانيق: التماثيل.

[٣٦] يريد السخاء الفني.

[٣٧] التعذال: اللوم. وفي البيت إشارة إلى الاقتراح القديم عن نصب تمثال رمسيس الكبير في ميدان محطة القاهرة.

أحييتَ فنًّا قديمًا مِن مفاخرها وكنتَ رافعَ آياتٍ وأثقالِ
وما يجازِي نبوغًا أنتَ تُعلنُه شُكرٌ، ولا تَوبُ نُقَّاد وعُذَّالِ
ولا مُبَاهاةُ ميدانٍ لعاصمةٍ النُّورُ فيها بمرآة كمختالِ
ولا مواعظُ إلهامٍ يشوِّقُنا ولا مدائحُ رُوَّادٍ وأبطال
ولا غُلُوٌّ بتقدير لما وهبَتْ عُلاكَ فوقَ قياس الصِّيت والمالِ
ولا تَحَدِّي الليالي أن تبدِّله أو أن تروِّعه يومًا بزلزالِ
لكنَّ حظكَ أن تلقَى مآثرَه حيَّ النهوضِ بأجيالٍ وأجيالِ!

الفن المجسم

غنَّيْتِ راقصةً بأعذبِ فتنةٍ ونَسيت مَنْ عرَفوا بكِ النسيانَا
فإذا بجسمكِ مثل صوتكِ مائجٌ بالحبِّ يَغمرُ سِحْرُهُ الألحانَا
وإذا الملاحةُ والرشاقةُ والهوَى جُمِعَتْ فكنَّ غِناءَنا وغنانَا
فنراك مبهوتين رؤيا حالم يَلقى الغِناءَ مصوَّرًا إنسانَا
أُنسيتِ نفسَك والوجودَ بأسرهِ لمَّا جَمعْت الفنَّ والفنانَا!

الإنسان الأكمل «ذكرى قاسم أمين»

نظمت لمناسبة احتفال الاتحاد النسائي المصري بمرور عشرين عامًا على وفاة محرر المرأة المصرية:

يكفيكَ ذِكرًا سما أنْ عِشْتَ إنسانًا تُحيي الموَاتَ وتُعلي الناسَ إحسانًا
وأننا ما برحنا نرتجيك هُدًى فما نسينا ولا جَدْواكَ تنسانا

عشرون عامًا مضت مِنْ بَعْدِ مَعركةٍ — أقوى خصومك فيها اليومَ واسانا[٣٨]

حيتك غاداتُ «رومانيا» مودِّعةً[٣٩] — وَرَدَّدَتْ بنتُ «مِصْرٍ» حُبَّك الآنا

لا عتبَ إن طالتِ الأعوامُ في سِنةٍ — إلَّا على الجهل لمَّا كان سُلطانا

تلك التحيةُ كانت للوداع، وفي — تحيةِ اليوم بَعثُ الروح إيمانا

بَدَوْن طاقةَ أزهارٍ تكرمها — واليوم تنشقُ روحٌ منك بستانا[٤٠]

وَتمَّحِي ترْحةُ الماضي كعاصفة — مع الشتاءِ، وتلقى الآن «نيسانا»[٤١]

فتُبصِرُ الزهْرَ بسامًا ومنتشرًا — وسافِرًا، وترى البستانَ ريَّانا

ولست تسمعُ أطيارًا مقيَّدةً — ملأنَ سمعكَ آلامًا وأحزانا

لكنْ تراهنَّ أنغامًا ممثَّلةً — فتشتهيهنَّ آمالًا وألحانا

ما كنتَ إلا مثالَ النفس كاملةً — ترى «الجمال» لها دِينًا ووجدانا

وترفض العيشَ في ظل النفاق كما — ترى الحياة بِذُلِّ الأسرِ كفرانا

وراحمًا عادلا زِينَ «القضاءُ» به — فكان في ملكوتِ العَدْل رَحمانا!

ومُصلحًا نابغًا «للفكر» منتصرًا — «للعقل» محتكمًا، «للحق» ميزَانا

حياتُه كلها شِعْرٌ وفلسفةٌ — وكم تأمَّلتُها حُسنًا وديوانا

عافَ التعصُّبَ للأمواتِ في زَمَنٍ — الناسُ ترْضى حياة الموتِ ألوانا!

وَهزَّنا لنعلِّي ركنَ «جامعةٍ» — كما نعلِّي مناراتٍ وصلبانا

وقد رأى المطلبَ الأسمى لمهجته — طهارةَ الخلق أرواحًا وأبدانا

وملجأ الناس في «حُريةٍ» عُبِدَتْ — والموتَ أن يصبح الأحرارُ عبدانا

وكان منصلتًا في سَيره أبدًا — إلى «الحقيقة» بينا الجهلُ أعمانا[٤٢]

---

[٣٨] إشارة إلى نابغة مصر الاقتصادي العظيم طلعت حرب باشا وكان أشد خصوم قاسم بك أمين في ذلك الوقت.

[٣٩] أي تحية مودعة؛ إشارة إلى الاحتفال بالطالبات الرومانيات الزائرات في نادي المدارس العليا مساء ٢٣ أبريل سنة ١٩٠٨م. حيث خطب الفقيد ونال تحيتهن وتقديرهن، وقد مات فجأة بمنزله في تلك الليلة.

[٤٠] إشارة إلى قوله في الحفلة السالفة الذكر: «كم أكون سعيدًا في اليوم الذي أرى سيداتنا يزينَّ مجالسنا كما تزين طاقات الزهور قاعات الجلوس.»

[٤١] إشارة إلى تاريخ الذكرى لوفاته.

[٤٢] منصلتًا في سيره: ماضيًا سابقًا.

أبى حياةَ لجاجاتٍ تُسخِّرهُ … للشرِّ حيث رأى الشريرَ شيطانا[٤٣]
وما رأى حاقدًا أحقادُهُ دِمَنٌ[٤٤] … إلا وجازاه إصلاحًا وغفرانا
ولا أثيمًا تبدَّى نَوْفَلًا حَرِدا[٤٥] … في الزهوِ يعتبر الأتباعَ قطعانا
إلا وحاَوَل تهذيبًا لفطرته … وقاده لجمال العيش جذلانا
وردَّهُ لشعور الناس مضطلعًا … بعبثهم، فيرَى الإخوانَ إخوانا
وإن أتاه عَدُوٌّ يَستغيث به … رأى العداوةَ إخلاصًا وشكرانا![٤٦]
ويَرفُضُ المدحَ إن فاض الغلوُّ به … إذْ لا يرَاهُ لهُ مَدحًا وعرفانا[٤٧]
وليس يرضى انحناءً للقويِّ إذا … كان القويُّ ظلومًا بَثَّ طغيانا
ولا الرضُوخَ لدهماءٍ يُسيِّرُها … الختلُ حينًا وهَزلُ الجهل أحيانا
وإن أطاق رُضوخَ الحرِّ مغتبطًا … للحقِّ يرفعه ذِكرًا وقرآنا
وما يبالي أجاءَ الحقُّ من عَلمٍ … أم مِن حقير، فيُرضِي الحق إرغانا[٤٨]
ونفسهُ هيكلُ الأحرار يملؤُها … تقديسُ «حرِّيةٍ» عَدَّتْه صَوَّانا[٤٩]
كذا مضى عُمرُهُ الوهَّاجُ مبتعثًا … شعبًا، وخلَّفَ بعد البعثِ بنيانا
وخلَّفَ النورَ والنيرانَ موقَدةً … لطفًا وفكرًا وإيقاظًا وإيقانا
فإنْ حفلنا فكلُّ الشعبِ محتفلٌ … بذكر مَن عَمَّ منه البرُّ دنيانا
كان المثالَ المرجَّى «للرجولة»، كم … عزَّ «الأنوثةَ» إنصافًا ورجحانا
ولم يكن همُّهُ قَصْرًا على سبَبٍ … من الحياة، ولكن كان إنسانا
فلنرثِه «وحدةُ الإنسان» في زمنٍ … آتٍ يُعَدُّ به الإنسانُ ديَّانا
وإنْ عددناهُ فينا دائمًا أبدًا … «عقيدَةً» كوَّنَتْ مِن قبلُ أكوانا!

---

[٤٣] اللجاجات: الخصومات، إشارة إلى قول الفقيد: «معاقبة الشر بالشر إضافة شر إلى شر.»

[٤٤] الدمن: الأحقاد المدمنة.

[٤٥] نوفلا حردًا: عظيمًا منفردًا.

[٤٦] من كلمات المرحوم قاسم بك أمين: «إذا استشارك عدوك فأخلص له النصيحة؛ لأنه باستشارتك قد خرج من عداوتك ودخل في مودتك.»

[٤٧] إشارة إلى قوله المأثور: «إن الذي مدحك بما ليس فيك إنما هو مخاطبٌ غيرك.»

[٤٨] إرغانًا: إنصاتًا.

[٤٩] كان يعلن أن «الحرية الحقيقية تحتمل إبداء كلِّ رأي ونشر كل مذهب وترويج كلِّ فكر».

* * *

يا هاديَ «المشرق الأدنى» ومغربِه ... مِن بعدما أمعَنَا في الجهل إمعانا
هـذي سـطـورُكَ آيـاتٌ مـنـضَّـدةٌ ... مثل الرياحين نـهواها وتـهوانا
وهـؤلاء تَوالـي الـحـمدِ فـي أسفٍ ... والـلـه يـقـبـل ما قـدَّمـنَ رضـوانـا
حميتَ أرواحَنا شرَّ الضلال فما ... نـجـزيك إلا وفـاءَ الـرُّوح تـحـنـانـا
وبِنتُ «مصر» التي دانت بنهضتها ... إليكَ تسقيك كأسَ البرِّ ملآنا![50]
كانت هُمُومًا لنا حتى سمتْ فغدتْ ... نُعْمَى، وصارت لنا رُوحًا وريحانًا!

الشهيد

تأبين نابغة الجراحة المصرية الدكتور علي إبراهيم رامز بك:

أعظِمْ بذكرِكَ أن تموتَ شهيدَا ... فتُضيف للمجد التَّليد عتيدَا[51]
وتُقدِّسَ الطِّبَّ الشريفَ فيزدهي ... أبـنـاؤه، وتـزيـدهـم تـأيـيـدَا
أرخصتَ عُمرَكَ في جهادِك واهبًا ... لـلـعـلـمِ أنـفَسَـه ومُـتَّ جـلـيـدَا
فرَحَلْتَ تستَغنى برُوحِكَ هكذا ... عـن كُـلِّ إجـلالٍ يُـعَـدُّ مـجـيـدَا
وتركتَ خلفَكَ في نُفوسٍ جَمّةٍ ... مِنْ بَذْل رُوحِكَ لـلـحـياةِ عَدِيدَا
مَنْ نال منزلةَ الخلودِ بروحهِ ... هيهاتَ يَطلبُ أن يعيش مَدِيدَا
ساوَيْتَ نفسَك بالذين أغثتَهُم ... وَتركْتَ جيشًا حين رُحْتَ وحيدَا
وجميعُهم يهوَى فداءَك حينما ... فـدَّيـتَـهـمْ وبَـعَـثـتَـهـمْ تـجـديـدَا
رجلٌ هو الإنسانُ في استعلائِه ... عِـلـمًا وفـكـرًا كـالـشـعـاعِ سَـدِيـدَا
وبــنــاءَ أخــلاقٍ وذِروةَ عــزَّةٍ ... للنَّفسِ لا يَرْضَى السُّمُوَّ فريدَا

---

[50] ملآنا: تمييز لكلمة البرّ بمعنى gratitudé full وليست متعلقة بكلمة «كأس» التي هي مؤنثة.

[51] مات الفقيد العظيم متأثرًا بتسمُّم دموي على أثر عملية جراحية قام بها، وهو ابن المرحوم الدكتور إبراهيم حسن باشا أحد مديري مدرسة الطب المصرية سابقًا.

قدْ كانَ جرَّاحَ الجسُومِ بِطبهِ كالشاعرِ الفنَّانِ خَطَّ قصيدَا[٥٢]
متأنقًا بمهارةٍ جذَّابةٍ وبِرقَّة تَذَرُ الجريحَ سعيدَا
نَفْسٌ بموسيقى الحياةِ تَشبَّعتْ فَتَدفَّقَتْ عَطفًا يَهُزُّ عَميدَا[٥٣]
وَحَنَتْ على حُسن النباتِ فأنبتَتْ حُسنًا وحُبًّا زاهرًا ونَضيدَا
وَسَختْ كما تسْخو الطبيعَةُ للورى بالبِشرِ حَوَّلَ كلَّ حُزْنٍ عِيدَا
واستعذَبَتْ لُغَةَ الحنان فأهملتْ لُغةَ الكلام بنُطقِها تجويدَا[٥٤]
كم برَّ بالفقراء والغرباء والـ أيتامِ مشغوفًا يَصُدُّ وعيدَا
سِيَّانِ مِن مرضٍ أتى أو فاقةٍ كم عافَ أن يَلقَى العُفَاةَ عبيدَا
أَسْدَى إلى الدُّنيا أياديَ جمةً وأتى الوداعُ فزادها تمجيدَا
مات الوفيُّ لنُبْلِهِ، وَمَماتُهُ فَخرٌ لَهُ ولنَا يدوم تَليدَا
وحيَاتُهُ شِعرُ الحياةِ، فحقُّهُ في الذكرِ أن يُتْلَى الرثاءُ نشيدَا

الدائرة

هذي الحياةُ بدنيانا كدائرةٍ وكلُّنا نُقَطٌ في خَطِّها البادي
وربما لم أكنْ يومًا بمحتكمٍ حتى على نُقطتي إلَّا بمقدارِ
فكيف أزعَمُ أني جِدُّ مُقتدِرٍ على حظوظِ الورى أو حظِّ أفرادِ؟
وكيف أنسى قُصوري في مبادلةٍ للناسِ مِن فيضِ إحساسي وإضماري؟

* * *

عرفتُ هذا فما أسرفتُ في جزعي مِنَ الأنام وما أسقيتُهم لَوْمِي

[٥٢] كان الفقيد مشهورًا بتأنقه في عملياته الجراحية كما كان دقيقًا في مهارته.

[٥٣] إشارة إلى شغفه بالموسيقى وعلم النبات.

[٥٤] إشارة إلى ما عُرف عنهُ من الإنسانية والرَّحمة، ولمْ يكن الفقيد يتقن اللغة العربية لأنه أقام طويلًا بألمانيا.

بل عُدْتُ باللومِ مهما كنتُ مضطَهَدًا — على فؤادي لعجزٍ في تفاعُلهِ
وصرتُ أجعل حالي حالَ دائرة — وكنتُ قبلًا بخصمي غيرَ مهتمِّ
وصرتُ أحرصُ في سعيي على صِلةٍ — بذلك الخطِّ حتى في تَحَوُّلِهِ!

التأني

إياكَ والهمَّ مِنْ عِبءٍ تنوءُ بِهِ — وانهضْ بما أنتَ أهلٌ أن تُحمَّلَهُ
ما قيمةُ البذَخِ الضافي وأنتَ بِهِ — عانٍ سقيمٌ؟ فدَعْ ما لستَ أنتَ لهُ
يُنيلك الدَّأبُ في صَبرٍ وفي زَمَنٍ — وربما كان أشهى النصر أقتلهُ!
فيم اندفاعُكَ والأيامُ نائمةٌ؟ — لا يغلبُ الدهرَ مِقدامٌ تجاهَلَهُ
قلبٌ يضيقُ بآمالٍ مؤجَّجةٍ — كم عذَّبَ الحرَّ مسعاه وقاتلهُ!

الرجل الطيب

صورة فريدة لموظف فريد

تأمَّلْ مدَى «الرَّجلِ الطيبِ» — تجدْ تحفةً للزمانِ الغبي
تغنَّى الزمانُ لهُ بالمديحِ — فما قالَ صِدْقًا ولَمْ يَكْذِبِ
يزوِّدنا مِن فنونِ الغرو — رِ ومن كلِّ جهلٍ له أعجبِ
ويُشبعنا من صُنوفِ الدسا — ئسِ في مستعِزٍّ من المذهب
ويَلطِمنا شرَفًا بالرذا — ئلِ وهْو الجليلُ الشريفُ الأبي
يَصولُ ويَبطشُ بالوادعينَ — ويَلهو ويعبث في موكِبِ
ويقتل ما أبدعتْه العقولُ — برفسِ الحمارِ وطيش الصَّبِي
ولا يملك الحرُّ بنَّا لما — يُعانيه مِنْ طبعهِ المُتعِبِ
تَعلَّمَ منه الزَّمانُ الرياءَ — وإنْ كانَ في حضنهِ قد رُبِي!
وكم بزَّ طفلٌ أبًا في الخصالِ — فأضحى معلِّمَ ذاك الأبِ
فعشْ عيشَ حُرٍّ تعاني الأذَى — بدارٍ هجاهَا «أبو الطيب»

وإلَّا فطلِّقْ بناتَ الحِجَى ... وبادرْ إلى «الرَّجلِ الطَّيب»!

الوطنية

إذنْ كلُّ آلامي وهَمِّي فِداؤهَا ... جَزائي عُقوقٌ حين حُبِّي جَزَاؤهَا
أيُخْذَلُ في مصرٍ — ومِصرٌ ضياؤها ... مُشَاعٌ — فَتاهَا وهو أصلًا ضِياؤهَا
لقد سخرتْ منا الشعوبُ ولم تَزَلْ ... فرُبَّ دواءٍ عندنا هو داؤهَا
إلامَ نرى الأحقادَ في مصر حرةً ... ضَواريَ تَطْغى والنُّفوسُ غذاؤهَا؟
تُهدِّمُ آثارَ العقول وتَرتقي ... عُروشَ النُّهى حتى يحينَ فَناؤهَا
فيا أسَفى إنْ لم تنلْ مصرُ قائدًا ... بصيرًا لتحيا أرضُها وسماؤهَا
لقد غابتِ الدُّولاتُ عنها، وكلها ... ضحايا صَغار النفس أو شُهداؤهَا
ومَنْ تُقْبَرُ الدولاتُ فيها لما بها ... من النقصِ لم يَصلحْ لها حكماؤهَا

***

بلادي على رغمي أُحبُّكِ دائمًا ... وإنْ كنْتِ دارًا بالعقوق بناؤهَا
وَهبتُكِ عُمْري قبلَ مالي وَصحتي ... وما صحتي ما دام عندكِ داؤهَا؟
وضحَّيتُ أولادي ورزقي ولم أزلْ ... أُضحِّي ونفسي لا يُلَبَّى نداؤهَا
وكم لائمٍ حُبِّي وآلامَ مهجتي ... وفي يدهِ إنصافُها ورضاؤهَا
إذا المثَلُ الأعلى تملَّكَ مهجةً ... تَساوَى لديها صَفوُها وشقاؤهَا
ولم تَشْكُ إلَّا في سبيل بلوغهِ ... وإلَّا فأشهى ما تُلاقي بلاؤهَا
فلا تلمِ المثَّالَ والطامحَ الذي ... لأمته يحيا ليحيا رجاؤهَا
فما اللومُ يجديه إذا كان لُبُّه ... أسيرًا لدنيا لا يُحَدُّ فناؤهَا
ويأبى إباءً أن يُحلِّقَ وحدَه ... وإنْ خصَّه منها وحيدًا عَناؤهَا

القومية

لو كان فينا رجالٌ!

لو كان فِينا رِجَالٌ   تَعشَّقوا «القوْميَّهْ»
لما نُكِبنا مِرَارًا   بشهوةِ «الحِزْبِيَّهْ»
لو كانَ فينا رجالٌ   لا يَتبعونَ الخَيَالْ
إلَّا لأجْلِ التَّسَامِي   لما بَكينا المحالْ
ما هذه الضَّوضاءُ؟   أينَ العقولُ الرَّجيحهْ؟
تَخاصَمَ الأَبْناءُ   والأمُّ ثَكْلى جريحهْ!
مآلُهُمْ للتَّصافي   مِنْ بَعدِ خُسْرٍ عظيمْ
فما يُفيد التجافي   وفي التجافي الجحيمْ؟
قالوا الخِلاَفُ دَليلٌ   على نُموِّ الحياةِ
وَقَدْ تَناسَوْا حياةً   مِنَ الأذى كالمماتِ
إنَّا بعصرٍ جَديدٍ   على التعاون يُبْنَى
فَكيف نَرْجو سِوانا   ومَنشأُ الهدْمِ مِنَّا؟
النَّاسُ تَمْشي اطِّرادًا   إلى تآخي الأُمَمْ
ونحنُ نهدمُ شَعْبًا   لنا بشتَّى التُّهَمْ!
حاشاىَ ألَّا أُنَادِي   بدعْوةٍ للتَّسَامي
لكنْ أقولُ جهارًا   ما النَّصْرُ بالأوهامِ
تَناوَلُوا ما اسْتطعْتُمْ   وحاذرُوا أنْ يَضيعْ
ولْتَعملُوا بَعْدَ هَذا   لِنيلِ مَجْدٍ مَنيعْ
أمَّا التَّشبُّثُ دوْمًا   بمثل حُلمِ الصِّغارْ
بين الصِّياحِ طَويلًا   وبين سُخْطٍ مِرارْ
أمَّا التَجنِّي وأنتمْ   جميعكم ذخْرُ «مِصْرَا»
كلٌّ يَشكُّ ويُرْدِي   أخاهُ ذلًّا وقَهْرَا
أمَّا الخُصُومَةُ حتَّى   تُضيعَ كلَّ الفُرَصْ
فتلكَ جُرْمٌ شَنيعٌ   حين المُنَى تُقْتَنَصْ

أراكمو في ضلالٍ وكم لكمْ مِنْ عِبَرْ
ورُبَّ ذَنْبٍ صغيرٍ حاكى صغيرَ الشَّرَرْ
فما لكمْ قدْ نسيتمْ نُصْحَ الحكيمِ القديمْ؟
إنْ باتَ فيكمْ حكيمٌ فأينَ ذاك الحكيمْ؟

ذكرى سعد «بعد مرور عام من وفاته»

تتردَّدُ الذكرَى وأنتَ إمامُ لا العامُ خاذِلُهَا ولا الأعوامُ
ولنا خليفتُكَ النزيهُ، وكلُّنا ذاك الخليفةُ إنْ قضى الإقدامُ
نُهدي إليه الحبَّ منْ أرواحنا فإذا المبجَّلُ رُوحُكَ البسَّامُ
بالذَّامِ خُصَّ مِن الطغاة، وإنه علَمٌ فما يرقى إليه الذَّامُ
نمْ في خلودِكَ هادئًا فجميعُنا شَعْبٌ على صدْقِ الولاء أقاموا
ولربَّ ذي أشَرٍ بذكركَ في أسًى جَزِعٌ ويزعمُ أنَّهُ الضرغامُ!

* * *

الشعبُ حجَّ إليك في نجواهُ مُذْ حالَ الجُناةُ وصدَّنا الصمصامُ
وبكلِّ جارحةٍ مِثالٌ ناطقٌ إنْ يخشَ رفعَ مثالِكَ الأصنامُ!
وبكلِّ قلبٍ كعبةٌ لك حرَّةٌ لا العسفُ بالغُها ولا الهُدَّامُ[٥٥]
ما كان مَدفنُك الجليلُ منارةً لكَ وحْدَهُ حين البنون قيامُ!
حَيْثُ العروبةُ أنتَ حيٌّ عازفٌ عن كلِّ صَرْحٍ للجلال يُقامُ
ولقَدْ غَنينا من غنائك فلتدُمْ في حُفرَةٍ فيها العظامُ عِظامُ[٥٦]
ولتهزأ الأقدارُ ممنْ قدَّرُوا أنَّ العظائمَ مُذْ دُفِنتَ تُضامُ!

* * *

[٥٥] إشارة إلى إغفال مشروع تمثاله ومقبرته الحكومية.

[٥٦] جليلة في منزلة الأكابر.

لا كـان هـذا الـيَـوْمُ لـولا أنـه ... يَـوْمٌ لـهُ الـتـقـديـسُ والإكـرامُ
ذكرَى الوفاة ويوْمُ ميلاد العلى ... عـمـرٌ بـدأتَ بـه وهـذا الـعـامُ!
لـم يُـعـرَفِ الـعـظـمـاءُ إلا فـكـرةً ... وعـقـيـدةً وجـلالـةً فـتُـرامُ
فليشمتِ الجبناءُ ولتسخرْ فلنْ ... تَبقى لهم حتَّى ولا الأجسامُ!
خدموا الفناءَ عبادةً بجنونهم ... ويضيع في صَرْعَى الجنون مَلامُ
لعبوا بنار الظلم وهي كفيلةٌ ... بضياعهم مهما جنَوْا وتعامُوا
ولسوف يرجع بَعدُ عيدُك ضاحيًا ... ويَـبـيـدُ يـومَ جـلالِـه الـظُّـلَّامُ!

***

يا يومَ «سعد» أعِدْ لنا استقلالنا ... هـو وَحْـدَةُ الـقُـوَّادِ لا الأحـلامُ
يتخاصمون ولا أمينٌ ناصحٌ ... فـيُـرَنَّـحُ الـدخـلاءُ والأخـصـامُ
أسَفي على من يجعلون خصومَهم ... حكمًا وتُحْمَدُ منهمو الأحكامُ!
ويرون إخوانًا لهم أخصامَهمْ ... فـتُـمـزَّقُ الأعـراضُ والأقـسـامُ
ويطول عهدٌ للتطاحن حينما ... تَـتـرَى الـجـراحُ بـنـا ولا تـلـتـامُ
كنتَ السياسيَّ العظيمَ بوحدةٍ ... كوَّنْـتَـهـا فـمـضَـتْ بـهـا الأقـلامُ
ونـعـود لـلأوهـام بـعـد تـيـقُّـظٍ ... متخاذلين، فتضحك الأوهامُ!
فـإذا بـكـيْـتُ وفـي الـديـار أئـمـةٌ ... فلأنهمْ مِنْ بعدِ فقدكَ هامُوا
نبذوا التعاونَ واستقلُّوا في مدى ... أهوائهم حينَ الخطوبُ جسامُ
ومِنَ الـتـنـابـذِ والـتـراشـقِ غـفـلـةٌ ... ومِن العنادِ إذا غلا استسلامُ!
وأبَـوْا مُـدَاراةَ الـزمـان ومـا دَرَوْا ... أنَّ الـزَّمـانَ يـجـدُّ حـيـن يـنـامُ!
حتى إذا رجعوا إلى أحلامهم[٥٧] ... خسروا الحقوقَ وخابتِ الأحلامُ!
فابعثْ بوحيكَ للهداةِ لعلَّهم ... يـتـنـبَّـهـون فـعـنـدكَ الإلـهـامُ

[٥٧] عقولهم.

الناسخ والمنسوخ

نكبة الدستور المصري لمناسبة ذكرى ١٣ نوفمبر سنة ١٩٢٨:

فِيمَ السُّكوتُ ولم يَسكنْ له البَلد؟ ... والوعدُ أيْنَ؟ فعَهْدُ الحرِّ ما يَعِدُ

مَنْ ذا يقول بنسخٍ لليقينِ بلا ... عَهْدٍ جديدٍ به المنسوخُ يَطَّردُ

ما كان يَصدق في الأديان قاطبةً ... هيهات يكذبُ في دينٍ ويُفْتَقَدُ

«مصرُ» ارْتَضَتْ منهُ فُرْقانًا لعزَّتِها ... واليَوْم تنشدُهُ بَحْثًا فلا تَجِدُ

ولا عزاءَ لها من دين نهضتها ... مِن بعدِ ما هدَّهُ في حُنقِهِ «الأسدُ»

إن تَحسبوها على صفوٍ وفي طَربٍ ... فإنَّ ذلك لو أدركتمُ الجلَدُ

يُزمجر الرعدُ فيها وهي صامتةٌ ... ويُسكَبُ الغيثُ فيها وهي تتَّقدُ

مَرَّتْ قرونٌ عليها جدَّ راشدةٍ ... واليَوْمَ يَزْعَمُ غِرٌّ ما بها رَشدُ

لو أنها نضتِ الصبرَ الذي ادَّرعتْ ... به لضِعْتمْ ولم يَصمُدْ لها أحدُ

ليس الدُّبا[٥٨] أهلها، كلا وليس لكم ... قدرُ الشماريخ[٥٩] مِطواعٌ لها الأبدُ

وما تَهاونَ يومًا مَعْشَرٌ صُبُرٌ[٦٠] ... في الحقِّ ما دام إيمانٌ لهم يَقِدُ

الأسْدُ تقبل ذلَّ الخُمْصِ[٦١] راضيةً ... وليس يقبل ذُلَّ المهجةِ الأسدُ

والحرُّ يرفض دارَ البغي مُعْتمَلًا[٦٢] ... والسِّجنَ مُزْدَرَعًا[٦٣] ما لم تَخُنْه يَدُ

وليس يحسب زفَّ الريش[٦٤] زينتَه ... إلَّا الذي لم يُطِعْهُ الصَّيدُ والطَّرَدُ

إنَّ البطولةَ جهدٌ طيَّ تضحيةٍ ... ما دام يقضي به الإخلاصُ والسَّدَدُ

وما الرُّضوخُ جلالٌ إن قضى حَرَضٌ[٦٥] ... ولا العنادُ جَمالٌ إن قضَى حَسدُ

---

[٥٨] الدبا: أصغر ما يكون الجراد والنمل.

[٥٩] الشماريخ: رءوس الجبال.

[٦٠] صبر: صابرون.

[٦١] الخمص: الجوع.

[٦٢] المعتمل: محل العمل.

[٦٣] المزدرع: محل الزرع.

[٦٤] زف الريش: صغير الريش.

[٦٥] الحرض: الضعف المنهك.

وكلُّ مُضْطبنٍ[٦٦] يومًا على فِئةٍ ... ولو بِعُذْرٍ وجيهٍ فهو مُضْطهِدُ
تصاغرتْ[٦٧] نفسيَ الدُّنيا بما جَمعت ... لمَّا هَوَى مِنْ عُلاها للحجى سَنَدُ
وقَوَّدَ[٦٨] النـاسَ مفتونٌ يُدَبِّرهم[٦٩] ... وتاهَ مَنْ هو قبلُ الميِّتُ الهَمدُ
فليس يَعمل للتحقيق مجتهدٌ ... وليس يَصمدُ للتمحيصِ منتقدُ
وأصبح الأهلُ أعداءً تساورهم ... شَرُّ الشكوك إذا ساروا وإن قعدوا
تَراشقوا بسهام الطَّعنِ قاتلةً ... كأنما الأهلُ لا أهلٌ ولا وَلدُ
غدا السَّميْدَعَ[٧٠] ذاك النكْسُ في زمنٍ ... مَن ينصر الحقَّ فهو الآثِم الفردُ
ويَزدهى القلَعَ[٧١] العاتي بلا سببٍ ... سِوى التبجُّحِ حين الفضلُ يُضْطهَدُ
وصار مَنْ هو ضَخمٌ في نَزاهتهِ ... لِصًّا بِعُرْف الألى في الأمسِ كم حَمِدُوا
فمن تنادَوْا بإنصافٍ فهم هَمَلٌ ... ومَن تنادوْا بعدوانٍ فهم نَضَدُ[٧٢]
فهل لهم سمعُ إخلاصي وموعظتي ... خَيرُ النصيحةِ قد يُزجيه منفردُ
وما الحقيقةُ في بأسٍ بشيعتها ... بأسُ الحقيقة ما تَعنيه لا العددُ
نصيحتي لا جديد طيُّها، وكفى ... أن العصورَ لديها الآن تحتشدُ
نصيحتي بنتُ تاريخ بلا أمَدٍ ... وعُمرُها ما لَه حَدٌّ ولا أمدُ
هي التآخي كفيلُ النصرِ إن عبستْ ... دُهْمُ الخطوب وقامت خلفها السُّدُدُ
فلا صلاحَ وإن غنَّى أعاظمكم ... به إذا مزَّق الإخوانَ مَن حَقَدُوا
فأرجِعوا سيرةَ الماضي مبجَّلةً ... ولا تُطيلوا وُعُودًا للمنى تَئِدُ
خلُّوا المحبةَ عنوانًا لهمتكم ... خلُّوا الكرامةَ ما يُزْهَى بها البلدُ

---

[٦٦] مضطبن: حاقد.

[٦٧] تصاغرت: أصغرت.

[٦٨] قود: قاد كثيرًا.

[٦٩] يدبرهم: يصرف أمورهم.

[٧٠] السميدع «بالدال»: السيد الموطَّأ الأكناف. والنكس: الرجل الضعيف، والجمع أنكاس.

[٧١] من ازدهيت فلانًا بمعنى تهاونت به. والقلع: السحاب العظيم.

[٧٢] النضد: الأشراف.

روح المجد

تمرُّ الحادثاتُ وليس يَبْقَى | سوى روحِ المُروُءَةِ والتَّفاني
ولم يُرَ كالوفاء الحرِّ مَجْدٌ | ولم يَبْنِ العُلى كالنُّبْلِ بانِ
ويُحْمَدُ مُحْسِنٌ إنْ صان فردًا | فكيف بمُنْصِفٍ شعبًا يُعاني؟
ومِنْ عَجبٍ تُسَخَّرُ للدنَّايا | نُفوسٌ تَشْمئِزُّ مِنَ الهوانِ
نَمتْها ذكرياتُ المجدِ قِدْمًا | وإنْ حالاهُما متباعدانِ
فكيف وفي الشموس لها غذاءٌ | تُطيق العيشَ في هذا الدخانِ؟
رضيتُ عن الجهالةِ وهي داءٌ | إذا عَفَّتْ، ولا عن عِلمِ جانِ
فكم مِنْ خائنٍ سَفهًا أخاه | بفلسفةٍ تَضيقُ عن المعاني
وكم مِنْ بائعٍ شعبًا أسيرًا | ولم يَغنمْ سوى سُخْرِ الزمانِ
نَدبتُ تَقلُّبَ الفتيانِ بَيْننا | يَبزُّون التقلُّبَ في الغواني
ألسنا مَعدنًا أوْلى بمجدٍ | وهل يرضى الرَّغامَ سوى الجبانِ؟

طب وطب

بعث بها صاحب الديوان إلى صديقه الشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي ردًّا على كتاب مودة منه:

أتاني كتابُ الصديقِ الكريمْ
فكان النديمْ
لقلبي الكليمْ
وقدَّسْتُ فيه شعورَ العظيمْ
ورمزَ الوفاءْ
ومثلُكَ في حِكمةٍ كالطبيبْ
لقلبٍ حبيبْ
كثيرِ الوجيبْ

فـإنَّ مـن الـطـبِّ رُوحَ الأديـبْ
ورُوحَ الإخـــــــــــــاءْ
وما كدْتُ أشكر حظي السعيد
بـــــردٍّ جـــــديـــــدْ
كـــكـــنـــزٍ فـــريـــدْ
وقـلـتُ أأزجِـي إلـيـه الـنـشـيـدْ
بـــشـــعـــرِ الـــغـــنـــاءْ؟
وما كدْتُ أطمعُ فيك ائتناسَا
فـــلـــم أدرِ يـــاسَـــا
ونُـــووِلـــتُ كـــاسَـــا
من الشعر فيما نظمتَ اختلاسَا
لـــتُـــحـــيـــي الـــرجـــاءْ
إذا بـي أفـاجَـأُ من لـؤم دَهـري
بـــمـــا ســـاء فـــكـــري
ومـــاهـــدَّ بـــشـــري
بسقمِكَ، عُوفيتَ مِن كل ضرٍّ
تـــلـــبِّـــي الـــنـــداءْ
فأصْبَحْتُ بعدَ الأسى والوجيبْ
كـــأنـــي الـــطـــبـــيـــبْ
لـــســـقـــم الأديـــبْ
فيا ليتَ شعري: أشعري الحبيبْ
رســـولُ الـــشـــفـــاءْ؟

شيخوخة الفيلسوف

بعث بها صاحب الديوان إلى صديقه الشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي وقد كتب إليه يشكو عبء الشيخوخة:

ما شاخَ قَطُّ الفيْلَسُوفْ إنْ شاخَ نَجمٌ سائرُ
في عالمِ الدُّنيا يَطُوفْ إنْ ضَلَّ فيه العاثرُ!
ويظَلُّ يَدأبُ في حياهْ ويَرَى الحياةَ الآخرهْ!
منْ ظَنَّ يَوْمًا مُنْتَهاهْ فَلهُ الظنونُ العائرَهْ
هُوَ دَائمًا يَلْقَى الوُجُودْ سِفرًا يُطَالِعُهُ بَصيرًا
حتى المُحَجَّبُ لا يَعُودْ مُتحجِّبًا عنهُ أثيرًا!
وإذا تشاءَم أوْ تفاءَلَ فهوَ في الحالين سامِ
وإذا تَجاهل أو تساءلَ فهو متبوعُ الأنامِ
وجَميعُ عالَمِهِ بَدَا في صُورةٍ مِنْ ذهنِهِ
وَسِعَ المَدَى بعدَ المدَى مِنْ شكلِهِ أو فَنِّهِ!
مهما تخبَّطَ جاهلًا فَتراهُ في الجهلِ العليمْ
تَلْقى التفرُّدَ ماثلًا فيهِ كديَّانٍ عَظيمْ!
لو شاخَ رَبٌّ للأنامْ فالفيلسوفُ إذنْ يَشيخْ
فلهُ كيانٌ لنْ يُضامْ وألوهةُ العقلِ الشَّمُوخْ!
فَلْتَشْكُ سُقمَكَ يا صديقي ولْتَشكُ مِنْ عِبءِ الكِبَرْ
لكنْ أرى الحَظَّ الحقيقي والمجْدَ عندكَ في سِيَرْ
ليُصَدِّقِ القوْمُ الألى لا يَعْرِفُونَ الفيلسوفْ
أمَّا أنا فأرى العُلَى فَوقَ السِّقامْ بل الحُتُوفْ!
عمِّرْ لنا عُمْرًا طويلًا ولو انَّ عُمْرَكَ لا يُحَدُّ
وابسمْ لنا شِعْرًا جميلًا فيهِ السَّعادَةُ تُسْتَرَدُّ!

عناصر التفاؤل

تـذوَّقـتُ ألـوانَ الـحـيـاةِ فـولَّـدَتْ   تفاؤلَ نفسي حين وحَّدَها ذهني
كما وُحِّدَتْ أصباغُ طيفٍ فأصبحتْ   ضياءً وكانت لا تُضيءُ ولا تُغْنِي

الاستقلال

ما كان هزْلًا ولا صيحاتِ ذي ألمٍ   لـكـنَّـه جُـهْـدُ تـعـمـيـرٍ وتـشـيـيـدِ
فـمـا تَـوطَّـن مَـزْهـوًّا بـمـوطـنـنـا   جَيشُ العدوِّ سوَى منْ جَهلنا المودِي
ويـدَّعـي أنـه طِـبٌّ لـنـا، وبـنـا   ضَعْفٌ، ولا ضعْفُ مَنكوبٍ بتيفودِ!
ضَعْفُ التسمُّم مِنْ تشتيتِ وحدتنا   وأيُّ جسم تـعـافَـى دون تـوحـيـدِ؟
كـلٌّ يـصـيـحُ بـأحـلامٍ يـردِّدُهـا   كـأنـهـا هـذَيـانٌ عـنـد تـرديـدِ!
والكلُّ ينسى معاني ما يفوه به   والكلُّ في كوْسجٍ[٧٣] في رُوح عربيدِ!
هـي الـنُّـفـارةُ[٧٤] إتـلافٌ لـهـمـتـنـا   بـالـلـغـوِ أو بـصـيـاحٍ غـيـر مـحـدودِ
نـالَ الـعـدوُّ بـهـذا مـنْ كـرامـتـنـا   فـوْقَ الـغـرامـة مِـنْ مـالٍ بـتـهـديـدِ
ورأوَةُ[٧٥] الـحـمـقِ ما زالتْ تـعـاودُنـا   كأننا البلدةُ الجلحاءُ[٧٦] في البيدِ!
تَـعـرَّضَـتْ لـصـنـوفِ الـغـزوِ غـافـلـةً   وَأهـلُـهـا فـي صـيـاح أو أنـاشـيـدِ!
فـمـن لـنـا بـاتـحـادٍ لا انـفـكـاكَ لـه   نـرعـاهُ كـالـدِّيـنِ فـي حُـبٍّ وتـوكـيـد
ومَـنْ لـنـا بـوفـاءٍ لـلـجـهـادِ فـلا   نشـطٌّ ما بين تكوينٍ وتبديدِ؟!

---

[٧٣] الكوسج: الكرنفال.

[٧٤] النفارة: الغرامة التي يأخذها الغالب من المغلوب.

[٧٥] رأوة الحمق: ظاهرته البادية على صاحبه.

[٧٦] التي ليس بها حصن.

الفاتح الجريء

إلى سعادة الدكتور محمد شاهين باشا لمناسبة تنفيذ سياسته الإنشائية الجريئة:

بالأمسِ قامَ «بمصر» أوَّلُ داعمٍ ... بالمالِ لاستقلالِها الوضَّاء
يبْنِي المصارفَ كالحصون، وعندهُ ... في المنشآتِ دليلُ كلِّ مضاء
وتقوم أنتَ اليومَ أجْرأَ فاتحٍ ... بالطبِّ يخضدُ شَوْكَةَ الأدواء
عرف الحياةَ سلامةً وكرامةً ... فسعى ليرفعَ «مصر» في الأحياءِ
ما بين «مؤتمرٍ»[77] وجَمْعِ وسائل ... للبحثِ والتَّعْميرِ والإنشاءِ
أممٌ تراقبُ «مصرَ» بعد عُزوفها ... عنها وتحمدُ فيك رُوحَ رجاءِ
ما المجدُ؟ ليس سوى الطُّموح لِعزَّةٍ ... تُهدَى من الآباءِ للأبناءِ
ما النصرُ؟ ليسَ سوى الحياةِ نَقِيَّةً ... لا سيرةَ الأجْداثِ والأشلاءِ
وأركَ أنتَ اليومَ تعملُ دائبًا ... للمجد بعد النصر دون مراءِ
عبْئانِ من كَلفٍ بمجدٍ خالدٍ ... ومن الولوجِ «بمصر» للعلياءِ
وبِناءِ صحَّتها بِهمَّةٍ ثَائرٍ ... في طَبعهِ المُتوَثِّبِ البنَّاءِ
قالوا: «تعجَّل، وهو غَيرُ مُوَّفقٍ ... إنَّ التَّعجُّلَ أصلُ كلِّ بلاءِ
سَيُضَيِّعُ الأَرْوَاحَ في اسْتهتارِهِ ... ويردِّد الأعذارَ دُونَ حياءِ!»
ولو انَّهم سمعوا الأنينَ لقدَّروا ... ألمَ العظيمِ لنكبةِ الضُّعفاءِ
ما كان أقتلَ منْ مَدَى أدْوَائِهمْ ... أوْ كان أرْحمَ مِنْ وفاءِ نداءِ
لكنهمْ عَاشوا على أحلامهمْ ... فنسوا حَليفَ خَصاصةٍ وعناءِ
تنتابُه الأمراضُ دون تَمهُّلٍ ... كالدُّودِ نالَ القطنَ دُونَ عياءِ!
ما أحرزتْ أَمَمُ العلى استقلالَها ... إلَّا بجهدٍ في سبيل بَقاءِ
هيهاتُ نُدْرِك أصْلهُ منْ فَرْعِهِ ... مهما تنوَّع بعدُ في الأجزاءِ
جُهْدُ الحياةِ مُوحَّدٌ مُتَضامنٌ ... فإذا تفرَّقَ ضاع مثلَ هباءِ
والشَّعْبُ أحصف ما يكون إذا أبى ... أنْ يكتفي لِعلاهُ بالأسماءِ

[77] المؤتمر الطبي الدولي الذي عُقد في القاهرة.

أو بـالـنِّـداء وبـالـشَّـكـاةِ، كـأنـمـا ... حُـجَـجُ الـكـلامِ مُـريـعـةُ الأعـداءِ!
إنَّ الـمـرافـقَ لا يـقـوم قـوامُـهـا ... إلَّا بــمــطَّــردٍ مــن الآلاءِ
كـلٌّ بـمـنـهـجـهِ يُـقـدِّمُ بـذلـهُ ... حـتـى يُـجـمَّـعَ فـي أجـلِّ نـداءِ
وأراكَ تَـبـذلُ هِـمَّـة غـلَّابـةً ... وتـردُّ عـادي الـموت عَنْ شـهـداءِ
فتلقَّ مِنْ «مصر» العزيزةِ شُكْرَهَا ... شـكـرًا تـردِّده صـبـاحَ مَـسَـاء
مـهَّـدْتَ تـمـهـيدًا إلـى اسـتـقـلالـهـا ... وقـتـلـتَ داءَ تـبـلـبـل الآراء
وعـرفْـتَ آسـاسَ الـبـنـاءِ عِـمَـادَهُ ... والـشـعـبَ فـي مَرَضٍ رَهـيـنَ فـنـاء
فـبـذلْـتَ قِـسْـطَـك لـلـحـيـاةِ عـزيـزةً ... فـإذا بِـبَـذْلِـكَ حَـرْبُ كـلِّ شـقـاء
لا خَـيرَ فـي شَـعْـبٍ عـلـيـلٍ قـابـعٍ ... مـا بـيـنَ أدعـيـةٍ وبـيـنَ بُـكـاءِ
أو بين سَـفْـسَـطـةِ الـجدالِ وشـهـوةٍ ... لـتـراشـقٍ وتـخـاذلٍ وعَـدَاء
يَـفْـتَـرُّ روحُ الـمـجـدِ من إيـثـارِنـا ... عَـمَـلًا «لـمـصـر» عـلـى أبـرِّ وَفـاء
حـتـى نـكـونَ لـهـا جـبـابـرةَ الـعُـلـى ... وَنُـعَـدَّ فـي الأحْـيـاءِ والـكـرمـاء

شعاع النفس

عِشْ أنتَ يا جسمي العليلَ فإنني ... راضٍ بـهـمِّـي فـيـكَ أو آلامـي
ليكنْ سَقامُكَ كالغذاءِ لمهجتي ... فإذا ظفرتُ بها رضيتُ سقامي
والنفسُ إنْ سلمتْ فليس بقاتلٍ ... ضـيـمُ الـحـيـاةِ وقـسـوةُ الأيـام
فـالـنورُ يشتمل الـجمالَ وضدَّه ... ويغيبُ وهْوَ هُوَ الطهورُ السَّامي

دولة العقل

جان الزمانُ لكي تسودَ فقد كفَى ... عُـمْـرٌ بـذلـنـاه بـطـوْع قُـلـوب
لـم نـألُ إعـلانًـا لـنـا عـن حـقـنـا ... والـيـومُ يـومُ تـتَـبُّـعِ الـمـطـلـوبِ
عُقبَى الدعاوةِ أن نئولَ لدعْوَةٍ ... لـلْـعـقْـلِ فـهـو الـعَـوْنُ لـلـمـغـلـوبِ

لوْ كان يُغنينا الكلامُ لعزَّةٍ غنيَ الورى عن همةٍ وحُروبِ
أو سَادَ مَنْ تَخِذَ العواطفَ وحدَها دِرْعًا لما شقيَ الوَرَى بخطوب
العَقلُ ميزانُ السلامة حينما يدْنُو المجاهِدُ مِنْ أذًى مرهوبِ
فهو الذي يَهْدِي البصائرَ والنهَى ويُراوغ الإِعْصَارَ عند هُبوُبِ
أما العواطفُ للحياةِ فشارةٌ وفُتُوحُها ليست بغير قلوبِ

الزعامة

إلى دولة صدقي باشا:

لكَ أن تسوسَ وأن تُجِلَّكَ أمَّةٌ ناديتَ أنكَ خادمٌ إصلاحَها
لكَ أن تكافحَ في سبيلك دائمًا إنَّ المبادئَ لن تفوتَ كفاحَها
لكَ كلُّ هذا، فالمواهبُ للعُلَى موفورةٌ لكَ بأسَها وجنَاحَها
لكنْ لنا أملُ المرجِّي عزمةً نحو الوئامِ تُنيلها أفراحَها
وتصونُ للزعماءِ فضلَ كرامةٍ لهمو، فكم حملوا لها مِصباحَها
إنَّ الزعامة للتداولِ دائمًا ومِنَ الرجاحة أن نُذيعَ صلاحَها
يتراشق الزُّعمَاء، لكنْ في غدٍ يَتصافحون ويطلبون سمَاحَها
فكنِ الجريءَ وللمروءة صافحًا وكنِ الزعيمَ مبدِّدًا أتراحَها
يتناوبُ الزعمَاءُ فضلَ قيادةٍ لكنْ تَضافُرهمْ يُعِزُّ سلاحَها
ليس التآلفُ غيرَ برءِ جراحِها حين التحزُّبُ يَستنيرُ جراحَها

وطنية الشاعر

لن يَصمتَ الشَّاعرُ الحسَّاسُ إنْ درستْ رُبوعُه ومشى ذلٌّ بموطنهِ
وإنْ يكنْ وَطنُ الإلهامِ موطنَهُ والكونُ أجمعُ لغوًا جنبَ مَسكنهِ
فمثلُه يَخلقُ الأكوانَ قاطبةً كما يُهَدِّمُ في ماضي تَفنُّنهِ

لكنَّما من نفاذِ الحِسِّ مُهجَتُهُ ومِنْ حنانٍ دقيقِ الفنِّ مُزْمِنهِ
فتستبيهِ من الأرضِ التي سعدتْ به ربوعٌ دَعَوْها أصلَ موطنه

استقلال العراق

خُذِي مكانَكِ تحتَ الشَّمس في الناسِ الملكُ للعقل فوقَ المُلْكِ للباسِ
يا أمةً عرفتْ مَعْنَى تضامنها حين التضامنُ آساسٌ لآساس
بك العُروبةُ قد تاهتْ ولا عَجَبٌ مُلكُ الرشيدِ سما مِن وهدة الياس
هل للممالك غيرَ العلمِ باعثُها أو الرجولةِ مِنْ جُنْدٍ وأحراسِ
ما قيمةُ اللفظ والمعنى يقوِّضه أو قيمةُ الشعبِ في موتٍ وأرماسِ؟
لم تَحْفلي مرةً إلَّا بصالحةٍ فنلتِ تاجين فوقَ النفسِ والراس
وصرت مضربَ أمثالٍ نردِّدها والذكرُ قد يوقظ المخدوعَ والناسي
دَمٌ زكيٌّ نقيٌّ ما يُلوِّثه لهوُ الحضارةِ أو إنعامُها القاسي
قد صان للعُرْبِ نبراسًا لنهضتهم ما أحوجَ العُربَ مذْ ضلوا لنبراس
أوْلَى بهم أن ينالوا مِنْ يدٍ لهمو ذاك الهُدَى قبل أيدي أبعدِ الناس
ما للعرُوبة إلا مجدُ جامعةٍ للعارفين بإلهامٍ وإحساسِ
تنزَّهتْ عن مَرامٍ في توحُّدِها إلَّا مرامي العلى والنبل والآسي
عواطفٌ صاغها التاريخُ في أدبٍ وجُمِّعَتْ مِنْ مَناحاتٍ وأعراس
إن ضَلَّ قومٌ هدًى منها أو اضطربوا فرُبَّ ظلمٍ جناه عجزُ قسطاس
فخرًا بني عمِّنا، فخرًا بهمتكم وقد قطعتم لها النُّعْمَى بمقياس!
وقد أبيتم إباءً كلَّ بارقةٍ من التَّهوُّر مثل الجحفلِ الرَّاسي
وقد جعلتم لكم لُسْنًا مقوَّمةً وأنفسًا حرَّةً بل حُرَّ أنفاسِ
فما أطاق عدوٌّ أن يخاصمَكم إن البطولة قد تُغني عن الباسِ

أمير الطب

الجرَّاح المصري الشهير الأستاذ الدكتور علي باشا إبراهيم:

شَرَفٌ أميرَ الطب ما أسْدَيْتَهُ ... ولو انَّ ما أحْرَزْتَهُ هو أعْظمُ
بِفتوحِ فنِّكَ في الجراحةِ يَزْدَهي ... وَطَنٌ بآياتِ النبوغِ مُتيمُ
ما اعتادَ في ماضي القرُونِ لمجدِهِ ... إلَّا التَّفرُّدَ بالذين تقدَّمُوا
شرَفٌ خُصِصْتَ به بموطنكَ الذي ... لِنداكَ في آلامهِ يتبسَّمُ
ويَعُدُّ في هذي المواهِبِ ذُخرَهُ ... إنْ جارتِ الأحداثُ أو مَن قد عَمُوا
ما جاز حَدَّ عُلاَكَ ما بُلِّغْتَهُ ... فبمصر عاش المُلهَمُونَ وحَوَّمُوا
يَكْفي لها شرفًا بنانُك هاديًا ... للبُرْءِ وهي عليلةٌ تتألمُ
والمعجزاتُ بِمبضَعٍ تكييفُه ... بيديْكَ سِحرٌ للجسومِ ومَغنمُ
والداءُ مهزومٌ أمامَكَ في رضًى ... وكأنَّما غنمٌ له إذْ يُهْزَمُ!
فإذا مُدِحْتَ فقد غنيتَ مواهبًا ... عن كلِّ مدحٍ في صفاتك يُكرَمُ
إن الذي يُحيي النفوس بفنِّه ... يأبى ثناءَ المادحين وإنْ سَمُوا
فتلقَّ إعجابي شُعورَ محبَّةٍ ... عن والدي، وعواطفٍ لِيَ تنْعَمُ
ما كان لي طَوْقٌ على كتمٍ لما ... يُمْليهِ وجداني، ولا هو يُرْغَمُ

لون من الفن

تحاملتَ لَوَّامًا وأسرفتَ هاجيًا ... وأسرفَ قومٌ في دفاعِهمِ عنِّي
ولكنني حتى بعلمي كأنني ... جهلتُ فلم أشعرْ بهجوٍ ولا طعن
إذا لم يكن للسوءِ وَقعٌ بمسمعٍ ... فكلُّ هجاء لا يسيءُ ولا يَجْني
ومَنْ ساس دُنيا من مشَاعر نفسهِ ... يعفُّ عن المدحِ العريضِ ويَستغني
أبجِّلُ دهري فهو خيرُ مُعَلِّمٍ ... أراني مَعاني الصفحِ لونًا من الفنِّ

الضاحك الباكي

أبكي على وَطَني العاني وإن سَخِرَتْ نفسي بنفسي فإني الضاحكُ الباكي
ما للضَّبابِ طغَى والشمسُ مُشْرِقَةٌ وما لأزهارِهِ في سجنِ أشواكِ؟!
أيعدَمُ الرَّوضُ جَنَّانًا يُشَذِّبُهُ في عالَمٍ بجمالِ العيشِ ضَحَّاكِ؟
أم يَعدَمُ النُّورُ مَجْلًى منه نَرْقُبُه أم للضَّبابِ مَعَانٍ فوق إدراكي؟

* * *

يا قلبُ ما أنتَ إلَّا طائرٌ غرِدٌ نَشَأتَ في السجنِ تبكي عمرَك الباقي
يكفيكَ وجدٌ دفينٌ أنت حاملُه يا واعيًا كلَّ أسراري وأشواقي
فلا تَدَعْني أناجِي مَوْطني حَرَقًا مِنْ بَعْدِ ما قد رَأى صَلبِي وإحراقي
داءَ الزَّعاماتِ كم حُرٍّ وكم عَلَمٍ بعدَ الشموخِ يُعاني ذُلَّ إطراقِ!

* * *

رَجعتُ أعرفُ نفسي بعدما فقدتْ نفسي وجودي بليلِ المحنةِ الداجي
أنا الأسيرُ كما أني الطليقُ به كموجةٍ زَخَرَتْ من بين أمواجِ
أبتْ إباءً حياةَ الأسرِ فانطلقتْ إلى فناءٍ فسيحِ المدِّ وهَّاجِ
والبَحْرُ ملءُ اضطرابٍ مِنْ عناصِرِهِ وكلُّ حيٍّ به كالميتِ السَّاجي!

* * *

يا مَوطنًا كلُّ ما فيه يؤرِّقني وكلُّ ما فيه أتراحي وآلامي
مَنْ حرَّم اللحنَ للصَّداحِ في زمن أحقُّ أن يتهادى بين أنغامِ؟
ومَنْ رأى أنَّ هذا النورَ منقصةٌ وأنَّ حقَّ الورى أضغاثُ أحلامِ؟
ومَنْ أباحَ لأصنامٍ مجرَّدَةٍ ذُلَّ الجباهِ كأنَّا دونَ أصنامِ؟

عيد الإحسان

تحية «جمعية الاتحاد والإحسان السورية المصرية» في يوبيلها الفضي:

الآنَ يهتفُ بالنشيدِ غرامي ... ويرفُّ في حُلَلٍ من الأنغامِ
ويقبِّل الأرضَ التي جادت لهُ ... بالحسن فتَّانًا وبالإلهامِ
نجمتْ حشائشُها بوشي ربيعها ... وزهتْ براعمُها بنورِ سلامِ
مِنْ كلِّ ما تَهبُ الحياةُ لسائلٍ ... عطفَ الجمالِ وكلِّ لُبٍّ ظامي
فاح الأريجُ فأيُّ قلبٍ لم يثبْ؟ ... وبدا الشُّعاعُ فمَنْ ترى المتعامي؟
«فينوسُ» مرَّتْ كالبشير فأنجبتْ ... هذا الربيعَ ومُلْكَه المتسامي
هذي مَفَاتِنُها بكلِّ صَباحةٍ ... طُبِعَتْ على الأرواح والأفهام
مرَّتْ بموكبها فلم تترك سوى ... حُلمِ الخلود سما عن الأحلام
دعْني أثِبْ وثْبَ الصغيرِ مناجيًا ... ما خَفَّني، وأجِزْ صلاةَ غرامي
عيدٌ لهُ الأرواح تسكب حُبَّها ... ويفيض بالإحسان كلُّ مقامِ
وتنال عُصبتُه الجلالَ بمُرْتَقى ... يوبيلها المتلألئِ البَسَّامِ
في رُبع قرنٍ أطلعتْ آياتُها ... بِرَّ المسيحِ ورحمةَ الإسلامِ
حتى إذا ابتسمَ الربيعُ مهنِّئًا ... أعلامَها بمآثر الأعْلام
فرحتْ بها الدنيا وكان لعيدها ... ذاك الشَّذَى وتلألؤ الأيامِ
واستجمعتْ أحْلَامنا وغرامَنا ... وثناءَنا ومَدامعَ الأيتامِ

قيثارى

قد حطَّمَ الدهرُ قيثاري فما تركتْ ... أحْداثُه غيرَ فردٍ بين أوتاري
فيا فؤادي تَشجَّعْ ولْتَذُبْ نغمًا ... فيه الوداعُ لدنيا الحرب والثار
عشْتَ المُرَجَّى لفنٍّ فلتمتْ مثَلًا ... للفنِّ ما دمتَ في الحالينِ قيثاري
وربما آهةٌ أرسلتَها وَلَهًا ... تفرَّدَتْ بحياةٍ بين أشعاري
يا خافقًا بمعانٍ كلُّها شجَنٌ ... هَوِّنْ عليكَ وبُحْ حرًّا بأسراري

فيمَ التكتُّمُ والأيَامُ قد نفدتْ — وما بقاياكَ إلَّا بعضُ آثار؟
كأنَّ صدري غدا لحْدًا أضمِّنُه — ذكرى السنين وأحلامي وأوطاري!
نُحْ في نشيدك مهزومًا ومنتصرًا — كلا المآليْنِ معصومٌ من العار
يناشدُ الفنُّ ما أحسستَ من تلفٍ — فالفنُّ غيرُ رحيمٍ، غيرُ صبَّارِ
فنُحْ إذنْ غيرَ هيَّاب ولا وَجِلٍ — لكنْ نواحَ جريحٍ خلفَ أسوَارِ
مهما تألَّمَ والآلامُ تنطقه — تَجدْه يُزري بأصفادٍ وأحجارِ
وقد بلوتُ بني الدنيا فما عرفتْ — نفسي ذنوبًا لنفسي غيرَ إيثاري
يا للتفاؤل في دارٍ يزيِّنها — غَدْرٌ وأعجبُه إشفاقُ غَدَّارِ!

حلوى العرس

مداعبة إلى الصديق الشاعر عبد الله بكري «لمناسبة عرس أخيه»:

أخي العزيزَ بحقِّ أخيكْ — لا تَنْسَني فالعُرْسُ قريبْ
يكفيكَ يا أَمَلي يكفيكْ — أني أبثُّكَ شعرَ «حبيبْ»
وصيَّتي أن تستدعي — حالًا «أبا درش»[78] الغالي
لكي يهيِّئَ للجمْعِ — «ترَمْ ترالا ترَلَالي»!
الشعرُ مِنْ عرَقِ جَبينهْ — واللَّحنُ صَوْتٌ منْ أنفِهْ
واللهُ خَصَّ بتكوِينهْ — ما كانَ حقًّا منْ حتفِهْ!
ورغْمَ ذلك فهو إمامْ — لجمعنا وهو المُفْتِي!
وليسَ يَعرفُ أيَّ خصامْ — وإنْ تورَّطَ في الزِّفْتِ!
فهوَ العزيزُ لنا دَوْمًا — وكلُّنا إخْوانُ هَواهْ
ولو سقيناهُ سُمًّا — لما تسمَّمَ مِنْ سُقْيَاهْ!
هلْ لليواقيت إلَّاهْ — أوْ غَيرُهُ ربُّ المرجانْ؟[79]

---

[78] الصديق مصطفى حسن البنهاوي.

[79] إشارة إلى غرامه بالتشبيه بالياقوت والمرجان في شعره.

لـولاه لـم نـضـحـكْ لـولاهْ ولا تضاحكتْ العيدانْ!
فلْتُعْطهِ فُرَصَ الإنشادْ لكيْ يوزِّع مَرْجانَهْ![٨٠]
فـيـسـتـقـلَّ بـهِ الأولادْ والـكُلُّ يَرقبُ إحسانَهْ!
وعِنْدَها باللهِ عَليْكْ ابْعَثْ إليَّ بِحلْواهُمْ!
وبالفواكهِ بين يدَيْكْ وكلِّ ما هو سَلواهمْ
فإنَّ حَوْليَ جيشَ حِسَانْ يَحتاجُ مثلي للتَّموينْ!
وُكـلـهُّـنَّ إلـيَّ رَوَانْ فلا تضنَّ، فلستَ ضنينْ!

المصاب

جدٌّ في مزاح لمناسبة صدور قانون مزاولة مهنة الطبِّ في مصر سنة ١٩٢٨:

قابلتُ «ينِّي» و«خَرَلَمْبُو» كلاهما في اللَّطمِ يَنُوحْ
والسُّوقُ ماجَ بمن فيه والكلُّ مذهولٌ مَبْحُوحْ!
هـذا يـغـامـزُ صـاحـبَـه وذاك يضحك في السرِّ
وآخـرون عـلـى نَـدْبٍ وغيرُهم حافٍ يجري!
وجاءَ «كستى» محزونًا لصاحبيْه بقارورهْ
فأسْقِيا بعضَ «العرَقي» مِن بعضِ فضلِ الماخورهْ
فـزاد هـذا وَجْـدَهـمـا وجـدَّدا نـدبًـا ونـواحْ
فـقـال فـلَّاحٌ: «ذكـرٌ للـه! سبحانَ الفتاحْ!
سبحانَ ربِّي مَن يَهْدي للدينِ جاهلَ إيمانِهْ!
ومَـنْ يُـعـلِّـمُـهُ ذكْـرًا للرُّسْلِ في غيرِ لسانه!»
وجاء دَوْرُ «امِّ خديجة» فقالتْ: «الزَّارُ! الزَّارُ!
أمْ تلك ضَوْضاءُ الزِّيجَهْ يا ابني وينقصها «الفارُ»؟!»[٨١]

---

[٨٠] إشارة إلى غرامه بالتشبيه بالياقوت والمرجان في شعره.

[٨١] مهرِّج مصري مشهور.

وجـــاء دوري فـــرآنـــي　　«يَـنِّـي» فقلتُ: «شـفـاكَ الـلـهْ!
مـاذا جَـرَى؟ أهـو الـدِّنـجـي؟»　　فــقــال: «والـلـهِ أرضــاهْ!
يـا لـيـتـنـي كـنـتُ عـلـيـلًا!　　بـل لـيـتَ مـوتـي وافـانـي
هــذا شــريــكــي مــخْــبُـولٌ　　مِـثـلـي، وعَـقـلـي جـافـانـي!»
فــقــلــت: «لا ســمَــحَ الــلــهُ　　هـل فـي الـمـزَادِ عـمـاراتُـكْ؟
أو ضـــاع ربـــحٌ تـــهـــوَاهُ؟　　أو عـانـدتْـك تـجـاراتُـكْ؟»
فـقـال: «مـا كـان الـبـنـيـانْ　　رِبـحـي ولا ربِـحَ شـريـكـي
بـل كـان مـا خـلـفَ الـدكـانْ　　لـلـطـبِّ أو لـلـتـدلـيـكِ!
كُـنْـتُ الـطـبـيـبَ لأغـنـى الـنـاسْ　　وصـاحـبَ الـكـيْـفِ الـعـالـي
وكـم جـمـعـتُ بـلا وسـواسْ　　مـا جَـلَّ عـنـدي مِـنْ مـالِ
أهْـلُ الـحـظـوظِ وأهـلُ الـكـيـفْ　　بـيـن الـزبـائـنِ كـالأهَـل
والآن أصـبـحَ مِـثْـلَ الـطـيـفْ　　حـظِّـي فـلا تـنـهـرْ عَـقْـلـي!
وكـلُّ خـطـبـي لـو تـدري　　من فرْطِ مكر «شاهينْ باشا»
قَـضَـى عـلـى شُـغـلـي وأنـا　　والـلـهِ لـسـتُ الـغـشَّـاشـا
فـكـم ظـفـرتُ بـتـشـجـيـعٍ　　من الـحـكـومـةِ فـي الـمـاضـي
فـكـيـف يُـحْـسَـبُ لـي غِـشٌّ　　مـا دام يـرضـاه الـقـاضـي؟!»
فـقـلـتُ: «اخْـرَسْ يـا جـانـي!　　أأنـتَ رغـمَ الـخـتْـلِ نـبـيـلْ؟!
وَصَـمْـتَ طـبَّ الإنـسـانِ　　بـكـلِّ أنـواعِ الـتـدجـيـلْ
وصـار فَـنُّ الـطـبِّ بـكـمْ　　عـارًا ولا عـارَ دعـارهْ
ولا شـهـادةَ تـنـصـفـكـمْ　　إلَّا قـنـانـي الـخـمَّـارهْ!»
فـوَلْـول الـرَّجُـلُ الـعـاتـي　　يـحـفُّـه صَـرْعَـى الـكـكـيـنْ
وصـوَّتـوا وجَـرَوْا حَـوْلـي　　فـكـنـتُ فـيـهـم شـرَّ سـجـيـنْ!
وحـاوَلـوا ضَـربـي فـإذا　　«بـالـمتْـر يَـنِّـي» يُـغْـمَـى عـلـيْـه
فَـطِـرْتُ طـيـرَةَ مـلـهـوفٍ　　مِـنْ بَـين مَـنْ حمَـلوا رجـلـيْهْ!
حـتـى اصـطـدمْـتُ بـدرَّاجـهْ　　يَـسُـوقـهـا «جـورجـي» الـمـخـبُـول

فـقـمـتُ مِـنْ نـوْمِـي وأنـا | أروي المصابَ «لوادي النِّيلْ»[٨٢]
فـبـئـس «يـنِّـي» وأخـوهُ | وكـلُّ مَـنْ نـهـبُـوا وَطـنِـي
ومَـنْ يُـصـادمـنـي قـتـلًا | وبـعـد ذا يـهـدِي كـفـنـي!
وألـفَ شـكـرٍ لـرئـيـسٍ | لـلـطـبِّ في «مصر» يَـرعَـاهْ
حَـمـاهُ مـن كـلِّ خـسـيـسٍ | وزاد رفـعـتَـه والـجـاهْ
وكـان قَـبْـلُ «الـطـبُّ» عـلـيلْ | مـن الـدعـاوى والـغـشِّ
والـيـومَ حـفَّ بـه الـتـهـلـيلْ | إذ قـام فـي أنَـفٍ يَـمـشِـي
وهـكـذا تُـبـنَـى الأمـمُ | بـالـجُـهْـد يـحـدوه الـتـعـمـيرْ
وتـتـبـع الـذِّمـمَ الـهِـمـمُ | فـي كـلِّ شـعـبٍ غـيـرِ حـقـيرْ

معذرة!

بعث صاحب الديوان بهذه القصيدة الوجدانية قُبيل انتقاله من الإسكندرية إلى القاهرة سنة ١٩٢٨ إلى صديقه الأديب الأستاذ عبد القادر عاشور:

رجوتُ منْ صاحبي «عاشور» معذرةً | فقد وَجدْتُ زماني شِبْهَ مخبولِ!
فـلـم أشـأ أن أعـاديـه وأفْـضـحَـهُ | ولـمْ أزلْ بـيـن تـطـبـيب وتـعـلـيـلِ[٨٣]
حَـتـى يـئـسـتُ وأشـقـانـي أقـاربُـهُ | فـخـيـرُهـمْ بـيـن مـجـنـونٍ ومـهـبـولِ!
لـهـم دعَـاوى إذا طـاوعـتـهَـا قُـتـلـتْ | فـيـكَ الـرُّجـولـةُ حـقًّـا شـرَّ تـقـتـيـلِ
أغالط النَّفسَ في حبي لنهضتهم | فـمـا رفـعـتُ سـقـيـمًـا شـبـهَ مـغـلـولِ
وضـاع وَقْـتـي طـويـلًا فـي رعـايـتـهـم | ولـمْ أزلْ بـهـواهـمْ جِـدَّ مَـشْـغُـولِ
فكلُّهمْ مِنْ بني جنسي وسَقْطتُهُم | تُثير وَجدي، وهذا الدَّهْرُ يَرثى لي
حـتـى أتـى وقـتُ إنـذاري بـفـرقـتـهـمْ | فـقـلـتُ: أكـرمْ بـنـقـلٍ لـي ومـنـقـولِ!
فـمـا خَـسِـرْتُ سِـوَى خِـلَّـين فـي بـلـدٍ | جَـمـالـهُ لـوفـيٍّ غـيـرُ مـبـذول

[٨٢] صحيفة «وادي النيل» التي نُشرت فيها القصيدة، وقد نُظمت عمدًا بأسلوبٍ سهلٍ مألوفٍ.

[٨٣] تعليل: تفسير لعللِ الزَّمان.

سَـكَـتُّ مـا بـيـن أَشْـجـانٍ مُـنـوَّعـةٍ وقـتًـا طـويـلًا وفـي نـجـواكَ مـأمـولـي
ومـا سَـكَـتُّ فـرُوحِـي مـا عَـرَفْـتَ، ومـا تـحـول إنْ حـالـتِ الـدنـيـا لـتـأمـيـلـي
وعـن قـريـبٍ سـأمـضـي شـطْـرَ عـاصـمـةٍ رُوحُ «الـمـعـزِّ» وقَـتْـهـا كُـلَّ تـذلـيـلِ!
بـهـا وُلِـدْتُ، فـلـي حَـقُّ الـبـنـوَّة إن حُـرِمْـتُ حَـقَّ غرامي في حمى «النيلِ»
فـإنْ أتـيـتَ إلـيـهـا فـادِّكـرْ أَمَـلـي في ودِّك الصَّفْو، واذكرْ شَوْق تقبيلي!
واسـأل تَـجِـدْنـي بـحـيٍّ عُـدَّ مـحـتـجـبًـا مثلَ احْـتـجـابِ الـمـعـالـي عَـنْ أبـاطـيـل
ولتتَّخذْ من «أبي درش»[٨٤] — إذا سمحتْ لـك الـحـكـومـةُ — نـاقـوسًـا لـتـهـويـلِ!
حـتـى يـكـونَ جـوازًا تـسـتـطـيـع بـه أن لا تُـوَقَّـفَ فـي «دربِ الـمـهـابـيـلِ»!
فـأغـلـبُ الـظـنِّ أنِّـي سـوف أسـكـن فـي «منشيَّةِ الصدر» أو في «بركةِ الفيلِ»!

دنيا الهموم

أجالسُ دُنيا مِنْ هُمومي كأنَّها صِحَابي، فكلٌّ باحثٌ ومُناقشُ
لئن حَجَبْتني عن أذى الناس حينما أذاهُمْ إلى قلبي المسالم طائشُ
فقدْ ذُقْتُ تعذيبًا عتيًّا مضاعَفًا وما زلتُ محسودًا كأنيَ عائشُ!

البيئة الجانية

بَثُّ ظُلامةٍ رفعها الشاعر إلى حضرة صاحب الدولة إسماعيل صدقي باشا رئيس مجلس الوزراء، شاكيًا من المحاربة العنيفة التي كان يوجِّهها إليه بعض كبار ذوي النفوذ من أجل أعماله الثقافية العامة. والواقع أنه لم يُعرَف عن عهدٍ للنور يُعاني فيه الأدبُ والأدباءُ الحلوكةَ العامة والاضطهاد كما يعانون في هذا العهد:

[٨٤] هو صديقنا مصطفى أفندي حسن البنهاوي صاحب ديواني «العبرات» و«البنهاوي»، وهو مفتون بالتهاويل الوصفية في نظمه، ولنا معه مجالس مفاكهة كثيرةٌ، وقد سبقت الإشارة إليه في قصيدة حلوى العرس (ص١١٢).

أيخذلني دهري وأنت مُناصِرِي ويغمطني قومي وأنْتَ زعيمُ؟
إذنْ كلُّ سعيٍ للمجدِّين مُجدِبٌ وكلُّ جهادٍ للصلاحِ عقيمُ
أبَيْتُ أبا الأشبالِ خَذْلِي بدوْلةٍ لها مِنْكَ رأيٌ حازمٌ وحكيمُ
أبَيْتُ إباءً أن يبدِّدَ هِمَّتي خصيمٌ وأن يَطْغَى عليَّ أثيمُ
أبَيْتُ ظَلَامَ العيش والنورُ ساطعٌ وعهدُكَ عهدٌ كالشعاعِ عميمُ
شكا الناسُ حين الموتُ ما يخلقونه وكلٌّ من الفِكر السقيمِ سقيمُ
وجاءت شَكاتي من فؤادٍ مُقَسَّمٍ أوزِّعُه حين الزمانُ لئيمُ
تُحَارَبُ فيه العبقريةُ مثلما يُطارَدُ لِصٌّ أو يُدَاسُ عديمُ!
دقائقُ عمري ذاهباتٌ على المدَى دقائقَ فَنٍّ يشتهيه عديمُ
تَألَّقُ شِعرًا أو علومًا وحكمةً ويقبس منها باحثٌ ونديمُ
لقد جَمعتْ صفوَ النعيم لقارئٍ ورُبَّ نعيمٍ ليس فيه نعيم!
تَخيَّلني القرَّاءُ أسْعَدَ مَنْ سَعَى وأرْوَحَ من يصفو لديه نَسيمُ
ولكنَّما العبءُ الذي أنا حاملٌ وجُهدي الذي صبري عليه عظيمُ
يحولان حتى دون حسِّي بأنني أعيشُ وأنَّ الكونَ فيه كريمُ!
تقدَّمْتُ رُوَّادَ الحقيقة رائدًا وحولي ظلامٌ خادعٌ وبَهيمُ
وما ليَ من حَولٍ وذُخْرٍ لمأربي سوى ذُخْرِ إيمانٍ عليه أقيمُ
فلمَّا خططتُ النهجَ فيما انتهجتُه وصفَّقَ للقلب الأبيِّ خَصيمُ
رأيتُ صديقي نائمًا عن رعايتي وحولي حسودٌ ناقمٌ وجَحيمُ
كأني وقد أرْهَقْتُ روحي ببذلها جنَيْتُ وكلٌّ مِنْ نَدَايَ غريمُ!
وما ساءني أني المضحِّي بروحِه جُهودًا، وما لي في الجهادِ رحيمُ
ولكنْ شجاني أن أموت ولم أُصِبْ لقومي فلاحًا أرتجي وأَشِيمُ
ولم يَبْقَ لي ركنٌ أُيَمِّمُ شَطْرَه سواكَ كما يرجو الحنانَ يتيمُ
فإنْ لم تُنِلْني مِنْ ودادِكَ مِنْعَةً وذو العقلِ بالعقل العتِيِّ يَهيمُ
فيا أسَفِي في مَصْرَعِ الفِكْر تائهًا بِدُنْيا حواها جاهلٌ ووخيمُ

ولـكنَّـني الـمُـزْجِـي إلـيكَ تَـجِـلَّـةً ... يُـعـزِّزُهـا حُـبٌّ لـديـكَ قـديـمُ[٨٥]
وكلُّ يـقـيـنـي أنَّ حُـبَّكَ مُـنـصـفـي ... وأنــي وفــيٌّ شــاكــرٌ وحــمــيــمُ

الحساب

أحاسِبُ نفسي في حياتي فما أرَى ... لغيري — ولو بَعْدَ المماتِ — حِسابي!
شكوتُ زماني وهو في الغَدْرِ سادرٌ ... وعُـدْتُ إلـى نـفـسـي بِـمُـرِّ عِـتـابـي
يُـعـذِّبـهـا دهـري، ولـكـنـنـي الـذي ... أجـرِّعُـهـا بـالـسُّـخـطِ شَـرَّ عَـذَابِ
كـأنـي أراهـا فـوقَ طـاقـةِ دَهْـرهـا ... وآبَـى عـلـيـهـا لـوعـتـي ومُـصـابـي
أكـلـفـهـا شَـقَّ الـمُـحـالِ طـريـقـهَـا ... فـإنْ فـشـلـتْ كـان الـعـقـابُ عـقـابـي
حـمَـلْـتُ بـكـفِّـي كلَّ صـابٍ وعـلـقـمٍ ... لـنـفـسـي جـزاءً واحـتـقـرتُ شـبـابـي
فـأذهـلَ دهـري رغـمَ يـأسـي تـوثُّـبـي ... كـأنَّ غـبـائـي كـان مَـحْـضَ تَـغـابـي
وحَـيَّـرَهُ حَـمـلـي الـمـكـارهَ قـاسـيًـا ... على النفس حين الدَّهْرُ ليس يُحابي
كـأنِّـي الـذي حـالـفـتُـه فـي شـقـائـهـا ... وإن كنتُ لم أعرفْه بين صِحَابي
فـأدركَ أنِّـي فـي الـهـزيـمـةِ والـعُـلَـى ... أخـو شَـمَـمٍ فـي الـحـالـتـيـن عُـجـابِ
ومـا زال فـي أمـري بـحـيـرةِ مُـجـرمٍ ... جَـنـى مـا جَـنَـى وهـو الأسـيـرُ ببابي!

إلى الآنسة مي «في وفاة والدتها»

عزَّ الـعـزاءُ وأنـتِ خـيـرُ عـزاءِ ... يـا كـوكـبَ الأدبـاءِ والـشـعـراءِ
الدهرُ يثأر والنبوغُ خصيمُه ... فـلـقـيـتِ مـنـه تـتـابُـعَ الأرزاءِ

---

[٨٥] كان صدقي باشا صديقًا حميمًا لوالد الشاعر منذ أيام الوفد الأولى، ولخال الشاعر وهو المرحوم مصطفى نجيب بك صاحب «حماة الإسلام» منذ عهد مصطفى كامل باشا أيام تأسيس الحزب الوطني وقد كان صدقي باشا من أركان الحزب الوطني.

وبقيتِ أنتِ برغمِهِ في عصمةٍ … من حكمةٍ ورجاحةٍ وسناءِ
تجري دمُوعُكِ حين قلبُكِ نابضٌ … بالحزمِ غلابًا وبالعلياءِ
والأمُّ أكرمُ منْ تُرَاقُ عواطفُ … في فقدها ومشاعرُ الأبناءِ
وتمضُّنا تلك الشجونُ وإنما … نَلقاكِ لُقْيَا الفجر في الظلماءِ

الأغاني

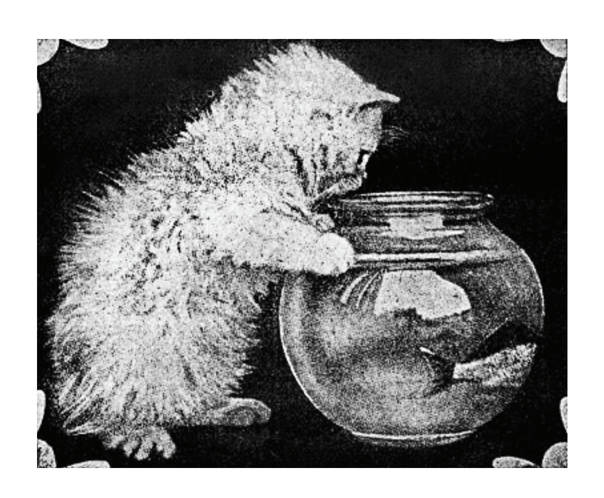
استمعْ للأغاني … فهي مثلُ النسيمْ
كم شدَتْ بالأماني … كم بكتْ بالحنينْ
إنْ تَدَعْها تَذُبْ … في مَماتٍ أليمْ
فاستمعْها تُصِبْ … مِنْ جمالٍ ثمينْ
استمعْ للأغاني … تَغْتنمْ عُمْرَها
سَمْعُها بافتتانٍ … نِعمةٌ أو صَلاهْ
فاقتبسْ سِحْرَها … ناهلًا سِرَّهَا
واعتبرْ خَيْرَها … مِنْ معاني الحياهْ!

القطة الذكية

١

لي قِطَّةٌ مشغولةٌ … بالبحثِ في الأشياءِ
حتى هواءُ غرفتي … والطَّيرُ في السماءِ!
تجري هنا وهاهُنَا! … تَقْفِزُ في أشكالِ
تُعلِّم الأولادَ مَكْـ … ـرًا مُزْعِجًا للبالِ
صارتْ مثالًا يُتَّقَى … مِنْ مَكْرِها الختَّالِ
حتى رأينا طردَها … مِنْ غايةِ الآمالِ!

لكنها قد لجأتْ — مِنْ مَكْرِها للحيلةْ
تريد أن نُبْقِيهَا — في بيتنا خليلةْ



القطة الذكية.

٢

تركتْ شئونَ اللهوِ واتْـ — ـتَخَذَتْ مِن العقلِ المُعينْ
ومَضَتْ تدقِّقُ في شئو — نِ البيتِ تدقيقَ الرَّزينْ
وكأنما هي تَكنسُ — وكأنما هي تدرسُ
ولكلِّ أمرٍ مَظْهَرُ — ولكلِّ حالٍ مَلْبَسُ
حتى غدونا نحسبُ الـ — ـقِطَّة صارت كالأميرَةْ
وكأننا كنَّا على — ذَنبٍ وتُرْمَى بالجريرةْ
ومَضَتْ تُشَوق كلَّ طفـ — ـلٍ للمجالي النافعةْ
بوقوفها ووثوبها — نحو الأمور الرائعةْ

والآنَ تُبصِرُها وقد قبضتْ وعاءَ السَّمَكهْ
كمدرِّسٍ متأملٍ جَمِّ المُنَى والحَرَكهْ
فغدتْ لنا أستاذةً واستأثرتْ بمحبَّةِ
والحسنُ يُكْرَمُ دائمًا حتى ولو في قِطَّةِ

حنين

أرسلها صاحب الديوان إلى صديقه الشاعر محمود أبو الوفا حينما توجه إلى فرنسا لعمل رِجل صناعية:

سلامٌ للوفاءِ «أبا الوفاءِ» ونجوى من رجائكَ أو رجائي
قد امتزجا فإنْ أرْسلتُ شوقي فذاك صَدًى لشوقكَ في صفاءِ
تركتَ صديقكَ الوافي عليلًا لبُعْدِكَ حين بُعْدُكَ للشِّفاءِ
ولم يزل الظَّلامُ قرينَ حظِّي فجُدْ بالنُّورِ من بَلدِ الضِّياءِ
أُقَضِّي العُمْرَ في كدٍّ وكدٍّ وأضحكُ للهمومِ وللشَّقاءِ
فيحسبني الحسودُ على هَناءٍ ومنذُ صباي عِشتُ بلا هناءِ
وآثرتُ السكوتَ، فلي فؤادٌ فصيحٌ بالعواطفِ والدُّعاءِ
وكنتُ إخالُه في البعدِ جَلْدًا فزاد بِخفْقِهِ المُضْني عنائي
كأني كنتُ جَنْبَكَ كلَّ يومٍ ولستُ على التَّوزُّعِ جِدَّ ناءِ
ولكنَّ الصداقة حينَ تنمو تُغذَّى بالقلوبِ وبالدِّماءِ
وتُكْرَمُ بالصُّموتِ ففيه مَعْنًى يَغيبُ عن المهرِّجِ والمُرائي
وليس الحُبُّ بالإعلانِ عنه وقد سطعتْ بصورتِهِ المَرائي

* * *

فعجِّلْ بالشفاءِ وعُدْ إلينا مَنارًا للمحبَّةِ والوفاءِ
وإنْ كان الزمانُ أحطَّ مِنْ أن يُلَاقَى بالشفاءِ والاحتفاءِ!
نعيش به بأرواحٍ تَلَظَّى وأبدانٍ تَئنُّ من القضاءِ
تُعاني كلَّ حينٍ ما تُعاني من الأرزاءِ داءً بعدَ داءِ

فعُدْ للنيلِ تُقرئه التحايا — من الشِّعرِ المُعطَّرِ بالولاءِ
وعُدْ لأَخيكَ صُورةَ ألمعيٍّ — من اللطفِ المرنَّق والذكاءِ
إذا جاشتْ بأصْفَى الشعرِ نفسي — تَجمَّعَ عندهُ أحْلى غِنائي
وقدْ أنأى ولا ألقاكَ لكنْ — تُشِعُّ لمهجتي بِمُنى الإخاءِ
وتَغتربُ الجسومُ إذا تناءَتْ — ولا تنأى النفوسُ على التنائي

وطني

ألموطني حُبِّي أم اللَّفَتاتُ — لربوعِ حُسنٍ أنتِ فيه حياةُ
وطني بدُنْيا الحسنِ لا حَدٌّ له — فإذا تحدَّدَ فالحَياةُ مماتُ
هذي الظلالُ المُفْصِحَاتُ نوافحٌ — من كلِّ مَعْنًى في جمالكِ حالِي
منْ نالَ رحمتَها بلفحِ حياتهِ — هيهات يذكرها بروحِ السَّالي
وطني هواكِ عبدتُه لكِ حينما — أكسبْتِهِ ألَقًا وخِفَّةَ رُوحِ
ألقاك فيما يُسْتطابُ بهِ كما — ألقاكِ طبَّ فؤاديَ المجروحِ
طبِّي ورُوحي أنتِ يا وطني الذي — مِنْ أجله قدَّسْتُ «مصرَ» بلادي
ما كلُّ أرضٍ للجدودِ عزيزةٌ — إنْ كانَ يَجْهَلُهَا حنينُ فؤادي

رعاية الجمال

قد أصبح الحسنُ حُسْنًا من تَعَهُّدهِ — وأصبح الحسنُ قُبْحًا من تبَدُّدهِ
صار التجمُّلُ إبداعًا ومُعجزةً — وكان مِنْ قبلُ مكفولًا بمولِدِهِ
كالزهرِ مهما صفَا شكلًا ورائحةً — هيهات يكملُ إلَّا منْ تَعَهُّدِهِ

عابدة القمر

خَطَرَتْ بضوءِ البدْرِ تَستشفي به   وتَجرَّدَتْ عن ثوبها الشفَّافِ
وتضرَّعت في شوقِ مبتهلٍ وفي   شعرٍ من الإلهام دون قوافِ
يا للجنونِ من الملاحةِ حينما   هذا الجنونُ لنا الدواءُ الشافي!
خطرتْ كعابدةٍ تَبَتَّل حُسْنُها   والنورُ يغمرها بلطفٍ وافِ
يتبادلان طهارةً برشاقةٍ   دقَّت على الفَنَّان والوصَّافِ
جِسْمٌ يَغيبُ النُّور في أثنائهِ   ويَشعُّ كالخافي وليس بخافِ
ظَمْأى النفوسِ إذا ارتوتْ من نظرةٍ   فالريُّ من سحرِ الألوهةِ كافِ
ولو انَّ أمواجَ الضياءِ تجسَّمتْ   لبدَتْ مَظاهِرَ نَشْوَةٍ وهتافِ
ما أروعَ الحسْنَ الذي لم يَحتجبْ   إلَّا بسترِ مَلَاحةٍ وعفاف
هو مِنْ مَفاتِنْه بأبهجِ حُلةٍ   ومن الخُلودِ ترفُّ في الأفواف
ويُقبِّلُ الدهرُ الشموخُ مَواطئًا   غُمِرت من القدمين بالألطافِ
بَحْرُ الحياةِ بجزرهِ وبمدِّه   من ذلك الوَحْي العظيم الضَّافي
تَتسَابقُ المُهجاتُ حولَ صفائهِ   كالشعرِ حَوْلَ مَطالع الأطيافِ
والطيرُ حَوْلَ منابعٍ عُلويةٍ   جذَّابةِ النفحات والأعراف
مَرْأى عليه من الفنون تَزاحمٌ   ويُصان ملءَ عواطف وشِغافِ
ونرى به سِيَرَ الطبيعةِ كلِّها   ومَدَى الطُّموحِ وغايةَ الإسفافِ

في الإنسان

وقالوا: يفوقُ النَّبتُ حِسَّ ابن آدم   بحسٍّ ويحوي مُهجةً مثلَ قَلبهِ
فقال لسانُ الحالِ: يا ليتَ أنَّه   يُقاربُ إحساسَ الجمادِ بلبِّهِ!

* * *

أطلَّ على ماضيهِ وهو سَحَابةٌ   وقال لها: مَنْ أنتِ؟ قالت: أنا الدنيا!
وساءلَ آتيهِ فلاحت سحابةٌ   فقال لها: مَنْ أنتِ؟ قالت: أنا الأخرى!

* * *

سما عقلُهُ فاعتزَّ بالعقلِ وَحْدَهُ   فأفْسدَ هذا العقلُ بُنيانَ نَفسِهِ
فراح يُناجي القلبَ والقلبُ عاتبٌ   فعادَ التآخي خالقًا نُبْلَ حِسِّهِ

الألَّاف

دواجني

تَنَقَّلْتُ في بِشْرٍ أحَيِّي جُمُوعَها   فكنتُ كأني سائرٌ بين أفراحِ
نفوسٌ لها إيمانُها وشعورُها   فهل بايَنتني أم حَكتني بأرواح؟
تهشُّ إلى البرسيمِ حتى كأنه   ثمارُ جِنانِ الخلدِ أو راحةُ الراح
وترمُقني بالحُبِّ حتى كأنَّني   رَسولٌ أمين قد أتاها بإصحاح
فذي فرخةٌ في نعمةٍ بترابها   تدلُّ على ديكٍ مشوقٍ وَصدَّاح
وذا أرنبٌ ضاحٍ بعزَّة وارثٍ   إلى الصَّاحِبِ الروميِّ كالعاتب اللاحي
وذا غَزَلٌ جُنَّ الحمامُ تَفَنُّنا   به كجنونِ النورِ ما بين أدواح
لواعبُ ترْعَى الحُبَّ في سكناتها   مَليكًا عزيزًا دون يأس وأتراح
يُطلّ عليها النَّحلُ في خطراتها   وقد يتَغنَّى في تَبسُّط مزَّاح
فألحظها في نَشوةٍ لسرورها   سُرورَ خليلٍ بالحبيب وبالصاح
تَعَارَفتِ الأرْوَاحُ حتى تَوَحَّدَتْ   بكل صديقٍ معجمِ النطق مفصاحِ
فصرتُ كأني بينَها في عشيرتي   وقد فهمتْ شعري وحُبي وأمداحي!

رثاء حافظ إبراهيم

الشِّعرُ بَعدكَ لن يعيشَ يتيمَا   والنَّظْمُ دونَكَ لن يهونَ نظيمَا
وزَّعْتَ رُوحَكَ في الحياةِ فأطلعتْ   عُمرًا، وصيرت المماتَ عديما
طُبِعَتْ بها الآياتُ للأدبِ الذي   ما زلتَ فيه على البعادِ زعيما

أدبٌ تسير الشمسُ بين ركابهِ في الخافقينِ وتحفظ التَّعليما
يحيا على كَرِّ الزمان ولم يكن ليموتَ لو غابَ الشعاعُ رميما
مِنْ طينِ «مصر» نما ومِنْ أنفاسِها والأرضُ لا تُنْمي الشعورَ ذميما
نَحْتُ الحياةِ وتارةً تمثيلُها عاشا مثالًا منْ نَداهُ وسيما
ما كان رَمْزًا للقسامة مَظْهَرًا كالكنز خبَّأ حاليًا وقسيما
لا يَستخفُّ بما يصوغ كِيانَه فيجيء مُعْجِزُه الجريءُ قويما
إنْ كان تَنقُصُه الرشاقةُ تارةً فمن الرشاقة ما يكون سقيما
يُلقيهِ في الحفلِ العظيم رسالةً فيهزُّ صحبًا إذْ يَهُزُّ خصيما
كالأنبياءِ يفيض عن إيمانهِ باللفظِ شهدًا والبيانِ شميما
في جوهريِّ الصَّوتِ يدوي عاليًا حتى إذا أشجاكَ عاد حليما
خضعتْ له المُهَجُ العزيزةُ وانثنى بالرَّاحِ يَشفي عانيًا وكليما
فترى الحياةَ تدبُّ في ألفاظه والصوتَ ينهض بالحروف رخيما
وتراه في المعنى وفي المبنى سَمَا فوق النُّبوغ إذا التَّفَوُّقُ رِيما
وينال بالإلقاءِ عُمرًا آخرًا مِنْ رُوحهِ ويزيده تفخيما
ولَكَم يموتُ الشِّعرُ مِنْ مُتعثِّرٍ فتراه في أبهى الجمالِ هشيما
جَزعتْ نفائسُه لفقدِكَ حينما موتٌ كموتِكَ يشبه التكريما
تمْضي إلى دُنيا الخُلودِ وقبلها مُلْكُ الخيال مَرِحْتَ فيه نسيما
رُوحٌ شَباةُ السَّيفِ حِدَّةُ خاطر فيه، ووَحْيُ الفنِّ فيه أُقيما
لاقَى الحُروبَ ودامَ في حَرْبِ المُنى ومَضَى ولم يَعرِفْ بها التسليما
غلبتْ بسالتُه الزَّمانَ وأشرقتْ منه البشاشةُ سالمًا وسليما[٨٦]
يتمَّيز القَدَرُ العَتيُّ بنظمهِ ويَقُصُّ أسرارَ القضاءِ رحيما
جَمعَ الشبابَ مع المشيب فأطلعا حِكَمًا وآياتٍ تَزينُ حكيما
زَهَتِ الفصاحةُ والرَّصانةُ والحجى فيها نُجومًا تَستحِثُّ نجومَا
يَبني البيوتَ العامرات مَآثرًا وهي الصوامعُ للجمالِ سليما
ويَصوغُ للوطنِ العزيزِ ذخائرًا «النيلُ» باركَ كَنزَهَا فأُدِيما

---

[٨٦] سليمًا: جريحًا.

جُلْوُ الدعابةِ والحديث فما انتهى مُـتـذوِّقٌ مـنـه نُـهـى ونـديـمـا
يَـنْسَـى مـراراتِ الـحـيـاةِ بـقُـربـه والـحَـظَّ خَـتْـلًا والـزمـانَ لـئـيـمـا
صافِي الفؤادِ فليس ينْبضُ مَرَّةً ألا صَـفِـيًّـا لـلـنـفـوسِ حـمـيـمـا
عَـلَـمٌ بـقـامـتـهِ ونـخـوةِ قـلـبـهِ كم صان للأدبِ الصمِيمِ صَميما
يُحيي القريضَ وكم يُغيث رجاله والـفَـنُّ أجـمـلُ ما يـكـون عـمـيـمَـا
يحنو على البؤساءِ حين استعذبوا مـنـه الـشِّـفـاءَ بـشـعـره تـرنـيـمَـا
نَشرَ المحبةَ والسَّلامَ ولم يَذُقْ إلَّا ألـيـمًـا لـلـورى وألـيـمَـا
كم مِنْ أيادٍ للمروءةِ حُجِّبَتْ حتى العليمُ بهنَّ ليس عليمَا
حَفظَ الوفاءَ كحفظهِ لُغةَ العُلَى وأشعَّ سحرًا للعقولِ جسِيمَا
هـيـهـات أنسـى مِنْ نـداه مـحَـبَّـةً قـد كـان يُـسْـبـغـهـا عـلـيَّ كـريـمَـا
لولا المحبةُ فاضتِ الدنيا أسًى وغدا شقاءُ الهالكين جحيمَا

***

يبكيك وجدانُ العُروبة مُنقذًا والجهلُ قد نشرَ الظلامَ بهيمَا
يَبكيك مَنْ عَبدوا الوفاءَ، وكلُّنا ذاك الـوفـيُّ الـمـرتـجـيـكَ قـديـمَـا
أمَّـا أنـا فـأردُّ دمـعـي، طـائـرًا فـوق الأثـيـرِ لـكـيْ أراكَ نـعـيـمَـا
وأعاف مِنْ شعرِ الرثاءِ مَناحةً وأراه ذكـرًا شـامـلًا ومُـقـيـمَـا
رَبحَ الذين رَثوْكَ شأوَ مَفاخرٍ وعَدَا الذي أغفلْتَهُ التَّعظيمَا
لكنْ وَدَدْتُكَ مَنْ يصوغ ليَ الرِّثا عن أن أصوغَ لك الرثاءَ كليمَا
شِعْرٌ تُقاسُ به الحياةُ ومجدُها ويُخلِّدُ الظلَّ السريعَ رُسُومَا
وَلـكـم تـمَـنَّـاه الأديـبُ كـنـوزَه عن أن تدومَ له الحياةُ خديمَا
وتُعَدُّ مِن نِعَمِ الحياة وبرِّها نفسٌ كنفسِكَ لا تسيء خَصيمَا
طُبِعَتْ على الزُّهْدِ النقيِّ وقدَّرتْ في الجاه غبنًا واليسارَ غريمَا
مـا الـحـيُّ إلَّا نـفـحـةٌ عـلـويـةٌ ما الميْتُ إلَّا مَنْ يعيشُ أثيمَا
فلَكَ البقاءُ السَّرْمَدِيُّ فإنما خُلقَ البَقاءُ لِمن يموتُ عظيمَا

رثاء شوقي

نُظِمتْ وُنشرت يوم وفاته:

أهذا هو الجسمُ الذي كان إنسانَكْ   أهذا هو الكنز الذي عُدَّ جثمانَكْ؟
أهذا هو الظلُّ الذي كنتَ ساكنًا؟   أهذا هو السِّفرُ الذي ضمَّ ديوانَكْ؟
أهذا مآلُ العبقريةِ بَعْدَما   أدمتَ لسحرِ العبقريةِ ألحانَكْ؟
فُجعْنَا بهذا الخطبِ فيكَ، وإنَّه   عميمٌ، وما استثنيتُ مَنْ أنكروا شانَكْ
كأنْ لم نكنْ بالأمس نبسمُ للمُنى   لديكَ، وكم خانَ الزمانُ الذي خانَكْ
كأنا جُمِعْنا للوداعِ فيا أسًى!   ويا لوعةَ الفنَّانِ يَشهدُ فقدانَكْ
ختمتَ كتابًا للحياةِ وإنْ تكنْ   خططتَ لسفرٍ آخرٍ منكَ عنوانَكْ
وإنْ أسرفَ اللُّوَّامُ لومًا فإنني   إذا سألَ التاريخُ أذكرُ إحسانَكْ
بكيتُ وقد جاءَ النَّعِيُّ يُثيرني   بكاءَكَ في المنفى تُسائل أوطانَكْ
وإنِّي الذي يَنْسَى الإساءَةَ راضيًا   وهيهات أن أرضى كغيريَ نسيانَكْ
فوا عجبي ممن برَى الحقدُ قلبَهُ   وآثرَ حتى في المنيةِ عُدْوانَكْ؟
وما أنتَ بعدَ الموتِ إلا كجنَّةٍ   فما تُلهبُ النيرانُ للحقدِ نيرانَكْ
رحلتَ بإيمان التَّقيِّ فلم يَحُلْ   وحَسْبُكَ للديَّان أن صُنْتَ إيمانَكْ
وما هَدَّهُ استهتارُ عَيْشٍ مُنَوَّعٍ   كأنَّكَ في الحالين حالفتَ ديَّانَكْ!
وفي ذمَّةِ العرفانِ ما قد بذلتَهُ   إذا رفضَ الحُسَّادُ للمجد عرفانَكْ
أحَبُّ جمالٍ كنتَ تُسديهِ للورى   صحائفُ للتاريخ أشْبِعْنَ ألوانكْ
وآياتُ أنغامٍ بلفظٍ مسلسَلٍ   فكلُّ قصيدٍ زفَّ كالراحِ أوزانَكْ
إذا لم تُطِعْهُ الرُّوحُ يَفتنُ مِسْمعًا   ويُعْطِي لموسيقى الملاحةِ وجدانَكْ
ومَنْ ذا الذي يَنْسى خيالًا موزَّعًا   على الكونِ حتى صرتَ تخلق أكوانَكْ؟!
مواهبُ شتَّى إنْ غُرِرْتَ بقدرها   وأكبرتَ منْ بعدِ التَّفَرُّدِ بُنيانك
فهل أنتَ إلا آدميٌّ وإنْ تَكُنْ   عظيمًا، وقد أثقلتَ في الحُكمِ ميزانَكْ؟!
حكيمٌ بشعرٍ لا بحُسْنِ سياسَةٍ   لذلك قد ضَاعفْتَ في العيش أحزانَكْ
فنمْ هانئًا، بلْ طُفْ بدنيا جديدةٍ   مِنَ الشِّعرِ، وانظرْ في خلودِكَ شُهبانَكْ
وخلِّ لنا في حكمةِ الموتِ هذه   كثيرًا من الأعباءِ ما كُنَّ شُغلانكْ

تَحَدَّ جَريئًا مَنْ تحدَّاك كي يفي إلى الأدب العالي بما فاتَ حُسْبَانكْ
فهذا وهذا وَحْدَهُ صِدقُ همَّةٍ وإلا فلقِّنْ راحة النَّومِ أجْفانَكْ!
ودَعْ تُرَّهَاتِ الشانئِ الساخطِ الذي يُجرِّدُ شعرًا صُغْتَ مِنْ كل ما زانَكْ
ودعني أكرِّرْ شكرَ قلبي وحسرتي ووِدًّا على الأيام لم أَسْلُ سُلْوَانَكْ
مَضْيتَ كمُلكٍ باذخٍ هُدَّ أصلُهُ ولكنْ لهُ ذِكرى تُصاحبْ إرْنَانكْ
وخلَّفْتَ صيتًا بين قدحٍ ومدحةٍ وحسبُكَ عُمْرًا حين تملأ أزمانَكْ
وكم مِنْ دَعِيٍّ منكرٍ فيكَ آيةً وغايتُه ألَّا يُبلِّغَ أكفانَكْ!

رسل الشعر

نُظمت ترحيبًا بشعراء العربية الذين وفدوا لتأبين المغفور له أحمد شوقي بك في القاهرة:

أهلًا برُسْلِ الشعرِ والفنِّ مِنْ كلِّ فنانٍ ومفتنِّ
تاه «الألمبُ» بهم وألَّههم شِعرٌ له التقديسُ في عدْنِ
سبقوا الربيعَ لنا فجاذبَه إنشادُهم فجرى من الزَّمنِ!
نثروا الرثاءَ نوافحًا حملتْ روحَ الحياة ونعمةَ الفنِّ
فاستقبلتْهُ الأرضُ باسمةً وهفا إليه الميتُ في الكفَنِ
مَنْ ودَّعَ الدنيا بما جمعتْ فبمثلِ هذا الشعر يَسْتَغْني
مَنْ ذا الذي يدري، فرُبَّ مدَى هذي الحياة مَدًى من اللَّحْنِ
تَبْقَى على الدُّنيا لنا شِعرًا وتغيبُ في شعرٍ وفي وَزْنِ
أهلًا بموسيه وشيعتِهِ الساكنين مواطنَ الحُسْنِ
الخالقين مِن العزاء لنا ما لم يكنْ في الحُلمِ والظَّنِّ
والطائفين بكل مُخْلِدَةٍ من نشوةِ الخُلدِ التي تَبْنِي
فاحتْ أطايبُهم لنا عَجبًا من مُسْتساغِ الشُّهدِ والمنِّ
أهلًا! فمصرٌ مصرُكم أبدًا في الفنِّ صادحةً وفي السَّكنِ
لم تنزلوا إلَّا على مُهَجٍ أو تصْدَحوا إلَّا على فَننِ

شعر الصمت

أملاها صاحب الديوان ارتجالًا على صديقه الشاعر حسن كامي الصيرفي:

وبـي حـنـيـنٌ إلـى شـعـرٍ أغـرِّدهُ   لكن يُشرِّد شعري فرطُ حرماني
أيـن الـجـمـالُ لأوفـيـه عـبـادتَـه؟   فما الطبيعةُ إلَّا بعضُ وجداني
أين التي ترقب الألحانُ طلعتَها   لـكـي تُـصـاغَ بـإلـهـامٍ وإحـسـانِ
غابت فغاب الهوى عن خاطري ردحًا   وإن أقـام بـقـلـبـي طـيَّ أكـفـان
فـأيُّ شـعـرٍ أغـنِّـي بـعـد فـرقـتـهـا   إلا الـصُّـموتَ بـأوجـاعـي وأحـزانِـي
شعرٌ من الصَّمت أقسى ما أحسُّ به   وكـلـه قِـطـعٌ مـن قـلـبـيَ الـعـانـي
لن يعرف الناسُ معناها وما حملتْ   مِـن الـنـشـيـد لـحـيـرانٍ ولـهـفـانِ
وإنْ أحـسَّ بـهـا قـلـبٌ يُـشـاطـرنـي   معنى الجمال ويرعاني ويرضاني
مِـنْ شـاعـرٍ حـائـرٍ مـثـلـي وحـيـرتُـه   تُـمـلـي عـلـيَّ فـأمـلـي روحَ حـرمـانـي

الفراغ

عَصَفَتْ بقلبي الحادثاتُ فلم تَدَعْ   فـيـهِ ذخـيـرةَ نـعـمـةٍ أو سـؤدد
نثرتْ وشتَّتَتِ الخواطرَ والمنى   ومـضـتْ بـأحـلام الـربـيـعِ الأغـيـدِ
فإذا الخريفُ مع الشتاء تحالَفَا   وتـولـيـا بـالـنَّـبـتِ والـزهـرِ الـنَّـدِي
وغدوتُ من قلبي بصحراءٍ خلتْ   مِـنْ حُـسـنـهـا لـلـشـاعـرِ الـمـتـودِّدِ
غلبَ الفراغُ عليَّ حتى لم تعُدْ   في القلب إلا حيرةُ القلب الصَّدِي
بل ربما لم ألْقَ حتى حيرتي   وتُركتُ في موت الفراغِ السَّرْمَدِي
هيهات غيرُ الحبِّ يعمر مُهجةً   بالخُلْدِ أو يُحْيي المُحِبَّ بمعْبَدِ

تاج الشوك

ألبسَتْها الحياةُ تاجًا من الشو ... كِ جزاءً على الجمال المبينِ
ليس بدعًا من الحياة إذا غا ... رت من الحسنِ قِبلةً للعيونِ
هي بنتٌ لها وكم من عَجُوزٍ ... تَتصابَى برغم شيبِ السنينِ
ألبستْها تاجَ العذاب بذكرى ... لشجونٍ موصولةٍ بشجون
فتراها والحسنُ يُعْبَدُ فيها ... في إسارٍ من الهمومِ مكينِ
حملتْ رأسَها المصَّدعَ بالهمْـ ... ـمِ ولكنْ بكفِّهَا المحزونِ
ونَضَتْ ثوبَها كما تنزعِ الهمْـ ... ـمَ عن النفس أو أسارَ الرهينِ
فإذا الوجدُ قد تغلغلَ في الحسـ ... ـنِ كلَيْلٍ بهيكلٍ مستهينِ
يتراءَى الأسى بظلٍّ ونور ... يتجلَّى بها وثغرٍ حزين
كلُّ ما أظهرتْ معانٍ من الضدْ ... دَيْن من عالمٍ عزيزٍ مَهينِ
نتملَّاه في خلودٍ من الحظْـ ... ـظِ وإنْ كان في اللظى والأنينِ

* * *

إنها صورةُ الضحية للدنـ ... ـيا فيا لوعةَ الجميلِ الثمينِ
كلُّ ما سرَّ في الحياة مسيءٌ ... والسخيُّ النبيلُ مثلُ الضنينِ
قبستْ من «حياتها» النورَ والآ ... نَ تردُّ النعيمَ ردَّ الغبينِ
كم ضحايا أَوْلَى بأن يعبد الأر ... بابُ من قَبْلُ أن يُضَحُّوا لدينِ
إنَّ صُنْعَ الفنَّان قد يغلب الفنْـ ... ـنَانَ قَدْرًا ومستعز الفنونِ!

البلبل الصامت

مَنْ عَلَّمَ البلبلَ هذا السُّكُوتْ ... أَيُسْكِتُ البلبلَ حَزُّ الألمْ؟
أيعشق البلبلُ هذا الصُّمُوتْ ... والعيشُ كلُّ العيش مِلءُ النَّغَمْ
يا بلبلي الساحرَ لا تَنْسَنِي ... إن كنتَ مَنْ يَنْسَى حزينًا هواكْ
أَشْبَعْتَ أنفاسي هواكَ الذي ... قد صار من روحي، وروحي فداكْ

لـو كـنـتَ تَـدْرِي أنَّ لـفـظًـا لـه حـلاوةُ الـشَّـوقِ ونَـجْـوَى الـغَـرامْ
قد صار عندي مثلَ وصلِ المنى رأيتَ هذا الصمتَ نـحـوِي حـرامْ
يـا بـلـبـلـي الـسـاحـرَ لا تـكـتـئـبْ واجعلْ حنيني يا حبيبي رضاكْ
مــا أنــتَ إلَّا نَــغَــمٌ طــائــرٌ في حين قلبي طائرٌ في شِراكْ
مـا مُـتـعـةُ الـطـائـرِ إلَّا الـهـوى وسـلـوةُ الـطـائـر إلَّا الـنَّـغَـمْ
رضيتُ أسرِي وارتضيتُ النوَى إنْ لـم تَـعـشْ أنـتَ أسـيـرَ الألـمْ

الظلال

ولـمَّـا لـم أنـلْ إلَّا صُـدودًا لجأتُ من الشعاعِ إلى الظلالِ
وودَّعْتُ الحقيقةَ حين باتتْ خيالًا وابتسمتُ إلى الخيالِ
ورُحْـتُ أسـائـلُ الأيـامَ عـمَّـا خبَأنَ من ابتسامِك وابتهالي
وأسـألُ كلَّ بيتٍ فـيـه ظلٌّ لذِكركِ ليس يَسْلوُ عنهُ سالِ
وأقرأ من خطوطِك ما تراءَى كـآثـارٍ مـن الـدِّمَـنِ الـغـوالـي
فصرتُ أعيش في حبي كأني أعـيـش بـعـالَـمٍ حَـيٍّ وخـالِ

الضحايا

كم في الخرافِ ذبيحٌ باسمِ تضحيةٍ للميتِ والميتُ لا تُنجيهِ أمواتُ
دُنيا التناحُرِ لم تُبْدَعْ بها صُوَرٌ إلَّا وإحـسـانُـهـا فـيـه الإسـاءاتُ

قبري

أحببتُ عمري الرَّوضَ حتى أصبحتْ رُوحي مثالَ الروضِ في أوزانِهِ
فحياتُه شعرٌ، وصورةُ مهجتي شعرٌ، وأصفى الشعرِ من ألوانهِ
أنفقتُ عيشي للأنام مكافحًا والحُرُّ مملوكٌ لأهلِ زمانهِ!
وأكاد أختم رحلتي ورسالتي كالناسِكِ المحسودِ في حرمانهِ
لم يَغنمِ الدنيا ولم يطلبْ سوى قبرٍ يَطيبُ إليه في تَحنانهِ
مَثوًى ترفُّ به الحشائشُ مثلما رفَّتْ شغافُ فؤادِه بحنانهِ
في روضةٍ الماءُ وثَّابٌ بها بشعورهِ وغرامهِ وجَنانهِ
والزَّهرُ يَعْبَقُ من محبَّتهِ كما عَبِقَ النسيبُ بوصفهِ وبيانهِ
وتُنَمَّقُ الأزهارُ في أصباغها مِنْ وَجْدِهِ الباقي ومِنْ أحزانهِ
ويزورُه الطَّيرُ الحنون مُواسيًا والفجرُ مبتسمٌ إلى ألحانهِ
والشمسُ ترأفُ بالأشعةِ فوقه كالأمِّ تَلثم طفلَها ببنانه!
والظلُّ شتَّى الوشيِ في ألوانهِ كالشعرِ في التعبيرِ عن وجدانهِ
والنحلُ ترقصُ حولَه في نشوةٍ وتَطِيرُ في فرحٍ على إيمانه
نَسِيَتْ خلاياها وقد حنَّت إلى مَنْ خَصَّها بالجمِّ من إحسانهِ!
وتودُّ — مثلي — لو يُصاغُ خليةً قَبرٌ حوى آمالَهَا بأمانهِ
جُوزيتُ عُمْرِي بالعقوق، فهل تُرَى في الموتِ ألقَى الحبَّ في بُستانهِ؟

التجاوب

تركتُ الفنَّ معتزًّا بشعري ولم أعرضْه في صُوَرِ الهوان
وما البحرُ العظيمُ بمستعزٍّ إذا أعْطَى اللآلئَ كلَّ ران
فإنْ أمعنتَ فيه رأيتَ دُنيا تَلألأُ في مَبَاهِجِهَا الرَّواني
حَوَتْ صُوَرًا وألوانًا تَنَاهَتْ بأطيافِ التخيُّلِ والمعاني
فتنسى أو ترى دنياكَ، لكنْ تَرَاهَا بالعواطفِ والجَنان

وتعرف كنههَا، وكأنَّ عُمرًا جديدًا ما تُطالع مِنْ بياني
وتَعتنق التفاؤلَ دينَ حبٍّ يُصادمُ كلَّ أحداث الزمانِ
وإنْ آثرتَ أن تُزْري بشعري وتلهو عن دمُوعي أو حناني
حُرِمتَ جمالَه، وحسِبتَ أني خَسرتُ، وما خسرتُ ولا الأماني!

نقدٌ وَمُلاحَظات الشعلة

بقلم إبراهيم ناجي

وما كان شعري في نظيم أصوغه ولكن شعري أن أكون أنا الشعرا

أبو شادي

هكذا أسمى أبو شادي ديوانه الجديد ولم أجد وصفًا ينطبق على أبي شادي وشعر أبي شادي كهذا الوصف! فأما الرجل فهو شعلة حقًّا، هو نورٌ ونارٌ، هو قبَس حيٌّ، هو شعاعٌ طوَّاف متميزٌ بالقلق، منفرد بالهداية، ضاربٌ في مجاهل الليل، مترامٍ فوق عباب جيَّاشٍ مترامٍ! هو ألَقٌ يقتحم الظلمة ويبدِّدها ويغشاها، ولكنه يرهب أطيافها ويخشاها، هو عينٌ جوَّاسة مجهرة، ترمي العالم بالنظرة الرحيمة الواسعة، ثم تعود مغمضة جفنيها على دمعة تترقرق فيها، وحسرة تذوب في محاجرها، هو فيضٌ من سلامٍ وحنانٍ وصفحٍ، ينحدر من نبعٍ قويٍّ صافٍ، فيصطدم بالبغضاءِ، والقسوة والغلِّ ... فيقفُ حائرًا عاثرًا متلفتًا هنا وهناك حزينًا، ثم يسترد قوته ويعاوده إيمانه المتين فيعلو ويعبُّ ثم يتدفق جبارًا مكتسحًا!

هذا هو أبو شادي في كلمتين، وشعره صورة منه. وتعريف الشعر في أحدث الآراء أنه «كلمات تعبر عمَّا لا تستطيع الكلمات المألوفة أن تعبر عنه ... هو كلمات تستقرُّ النار والروح في قرارها: charged with fire and spirit».

وبقدر هذا اللهب، هذه الشعلة الكامنة، يكون الشاعر شاعرًا أو لا يكون، وينفذ قوله إلى صميم إحساسنا أو لا ينفذ، ويعيش ويخلد أو يموت ويطوى. وليس هذا في الشعر فقط بل في الفن بأكمله؛ فالصورة الفنية الرائعة تكادُ تمشي، وتنطق، وتقول شيئًا، والوجه الجميل هو الوجه الذي ترتسم في تقاسيمه أثر تلك الروح الدفينة. والواقع أننا لا ندري تمامًا كُنْهَ ذلك الشيء الذي ميز شاعرًا مثل بيرون، عن شاعر آخر من النَّظَّامين، غير أن الله ملأ روح الأول بشحن من الأثير الكهربائي، من القوة الخفية الخارقة التي يسميها العالم ماكس بلانك «الكوانتم» ... وهي التي تتغلغل في المادة وتكسبها الحياة ... وأنعم على الثاني بتيار هادئ قانع متواضع!

ديوان أبي شادي الجديد زاخرٌ بالأمثلة العديدة عن الروح القوية التي تسيطر على شعره وتكسبه جدَّةً وطرافة وتنوعًا!

استمع إلى عابد الجمال في هذا الشعر الجميل:

وأنا العبد الذي ناجَى الإِلهْ ورأى رؤيا عيانٍ منتهاهْ
ورأى ألفَ ذنوبٍ وعذابْ ورأى الغفرانَ من بعد الحساب
ورأى المعبدَ في رقعةِ أرضٍ ورأى الجنةَ في لمحةِ غمض!

واستمع إلى العابد في صلاة أخرى:

وأُحرقُ مهجتي الحيرى صلاةً وقلبُكِ صادفٌ عني وهاني
وأرجع خائبًا من غير معنًى سوى معنى التحرُّق والتفاني

وانظر إلى حيرة الفنان يستلهم ويستوحي:

فإذا نأيت جعلتُ ألتمس الهوى والحسنَ بين مصَادر الإلهام
وحَّدتُ فيكِ صبابتي وعبادتي لمَّا جمعت مَفاتنَ الأيامِ!

وانظر إلى النظرة القاتمة في اليائس التائه:

علامَ التمادي في المُنى حينما نرى　　　ضحايا المنى أضحوكةَ الحظ والبؤس؟!

ثم تعاوده الرحمة والأمل والصفاء فيقول:

إني لتطفئ نارَ الحقد ما رُزِقَتْ　　　نفسي من الحبِّ مهما اشتدَّ عاديهِ!

وإن نفسه الصافية لَمرآةٌ للكون وصورةٌ للطبيعة، فحين يراها غائمة في يوم مطير ينشد هذين البيتين الرائعين:

فيا غمامُ أطِلْ سحًّا على زمنٍ　　　الحسنُ والنورُ بعضٌ من خواطرِهِ
أنتَ الحرِيُّ بسكب الدمع في شجنٍ　　　فقد صحبتَ قديمًا غرسَ ساحرِهِ!

وبينما هو يُثار في نفسه، في حبه، في فنه، وفي اليوم المطير، وفي اليوم الضاحي والليل الذي يكتنفه، والصبح الذي يوشك أن يتنفس ... إذا به يتجاوز هذه الآفاق: فيحلم بمصر، وجمال فتياتها؛ لأن هذا الجزء من الكل، فهو في نظره جديرٌ بشعره، جديرٌ بالتقديس، فيقول:

ولم يدر الألى حَجُّوا وزاروا　　　وناجَوْا مصرَ في ماضٍ وحالِ
بأن فتاتَها هي سحرُ منفٍ　　　وآيةُ حسنها الفذِّ المثالِ

وفجأة يترك كل هذا ليطرق بابًا آخر، ليريكَ لونًا من الفلسفة العالية العميقة:

حرامٌ أن تعدَّ الطرس ذخرًا　　　وأن تعتزَّ من مُلكِ القريضِ
مقاييسُ الزمان قد استحالت　　　فما أدنى الحبيبَ إلى البغيضِ!

أيُّ صدقٍ وجلالٍ فيما يقول! حقيقة إنه إذا استحال الغم إلى مرارة، والأفق إلى سواد، فما أقرب عن حظوظ الشعوب في فلسفة ممتازة:

حظوظُ الشعوب حظوظُ الدماء فـإن الـدمـاءَ الـغِـنـى الأولُ
ومـا كـرمـتْ نـطـفٌ لـلـهـوان ولا حـقـرتْ عـنـدمـا تـنـبـلُ!

فهذا التنوع، والنظرة إلى الحياة: النظرة التي تستقر الرحمة والطيبة في أعماقها، والأمانة التي يؤدي بها الرجل رسالته ككل شاعر ملهَم ممتاز، والصدق في الإحساس والتصوير، كل هذا يجعلك تمعن في هذا الشعر الذي انتزعه من صميم قلبه ومن مرآةِ الكون حوله وقد عكست أضواءَها على ذهنه الحسَّاس المتوقِّد.